الحكمة والتأمل فى شعر لبيد بن ربيعة

وارتباطهما بالموقف الوجدانى

أ.د / عيد عبدالرحمن قناوى

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بأسيوط

جوهر شخصية لبيد:

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى[١]، شاعر النبل والفضل والقوة والفتوة، والحكمة الرائعة، والكلمة الجامعة، والدقة البارعة، والخيال البعيد .

وأمه تامر بنت زنباع بن عيسى تزوجها أولا قيس ابن جزء بن خالد بن جعفر فولدت "أربد" ثم خلفه عليها ربيعة فولدت لبيدا[٢] .

نشأ لبيد فى كنف عمه عامر بن مالك بن جعفر، فهو وليه بعد أن فقد أباه، الذى كان يسمى ربيعة المعترين لجوده ونجده، وأولئك أعمامه: عامر ملاعب الأسنة والطفيل فارس قُرزُل[٣]، ومعاوية معوذ الحكماء، بنو أم البنين، إحدى المنجبات من نساء الجاهلية، فنشأ لبيد فى بيت من أنبه بيوت العرب، وقد لاحت مخيلة الشعر على لبيد منذ حداثته، وأول عهده به أرجوزته التى صدع بها بين يدى النعمان بن المنذر وهو صبى لم يعد طور الحداثة، وحديث ذلك أن "عامر" رهط لبيد وفدت على النعمان يقدمها ملاعب الأسنة، فالتقوا بين يدى النعمان بوفد "عبس" وأميرهم يومئذ "الربيع بن

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة، ط . دار التراث العربى للطباعة ١٩٧٧م جـ١ ص٢٨٠ .

(٢) جمهرة: أنساب العرب تحقيق عبدالسلام هارون جـ٢ ص٢٨٤ .

(٣) اسم فارس له ولحذيفة بن بدر .

زياد" وبين الحيين ثارات وأحقاد، فغض الربيع من شأن "عامر" ، وكان نديم النعمان وأكيله، فنفذت كلماته إلى موطن اليقين من قلب النعمان، فخرجت عامر تجرر أذيال الذل، وكانوا قد تركوا لبيدا فى إبلهم، فلما رأى الهم على وجوههم سألهم عما دهاهم، فلم يأبهوا له ولم يجيبوه، فلما ألح عليهم حدثوه أمرهم، فقال: إذا غدوتم إليه غدا فأنا أكفيكموه، فأرادوا أن يختبروه فساموه أن يصف بَقْلَة كانت أمامهم تدعى "التَّربة" فقال: هذه التربة التى لا تُوْهل دارا، ولا تذكى نارا، ولا تسر جارا، عودها ضئيل، ونوعها كليل، وخيرها قليل، نبتها خاشع، وأكلها جائع، والمقيم عليها ضائع، أقبح البقول مرعى، وأقصرها فرعا فتعسا وجدعا، ألقوا بى أخا عبس، أرده عنكم بتعس، وأتركه من أمره فى لبس، فلما أصبحوا حلقوا رأسه وألبسوه حلة، وغدوا به معهم على باب الملك، والدار والمجالس مملوءة بالوفود وجماعات الناس، وكان أمرهم قد تقارب والربيع مع الملك يطاعمه فتقدم لبيد، بحيث يسمعه الملك، فاستأذنه لبيد فى الكلام فأذن له فأنشده أرجوزة مدحه فيها ثم ثنى على "الربيع" هاجيا مقذعا، فكان مما قال فيه :

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه
إنّ استه من برص ملمعه
وإنه يدخل فيها إصبعه
يدخلها حتى يوارى أشجعه
كأنما يطلب شيئاً ضيعهْ

فلما سبع النعمان هذه الأبيات بغض الربيع ومجالسته ومؤاكلته، فلم يعد ينظر إليه بعدها، وخرج الربيع ذميما، حسيرا، ومنذ ذلك اليوم ولبيد شاعر القوم غير مدفوع[١] .

وكان لبيد فى شبابه من أبطال العرب المعلمين وأجودهم المتلفين وشرابهم المسرفين، يقال إنه قد ورث من أبيه خلة الكرم فنذر على نفسه فى الجاهلية ألا تهب الصبا إلا نحر وأطعم الناس حتى تسكن وألزم ذلك نفسه حتى آخر دهره[٢] .

وفادته على النبى - صلى الله عليه وسلم وإسلامه :

لما انبلج نور الإسلام على أرجاء العرب ودخل القوم فى دين الله أفواجا، أقبل لبيد فى وفد بنى عامر وبايع النبى - صلى الله عليه وسلم، على الإسلام، ثم رحل إلى نجد ومكث بها مدة من الزمن، ثم رحل إلى الكوفة أثناء خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - واستقر بها، وكان أهل الكوفة يقدرون لبيدا لصفات حميدة فيه خاصة كرمه الذى عرف به فى الجاهلية والإسلام .

---

(١) ديوان الفروسية، عامر بن الطفيل، لبيد بن ربيعة، شرح د/ يوسف عيد، طبع دار الجيل - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ص١٦٧ / ١٦٨ ، وتاريخ الأدب العربى، أحمد حسن الزيات، طبع: دار نهضة مصر الطبعة ٢٥ ص٦٩، الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى محمد هاشم عطية، ط. دار الفكر العربى ١٩٩٧ ، ص٢٤١/٢٤٢ .

(٢) راجع: الشعر والشعراء جـ١ ص٢٨٢ .

ولقد أدرك عهد الفتنة التى انتهت باستشهاد عثمان ابن عفان - رضى الله عنه - ، ولا توجد له أى ذكرى فى هذا العهد، ولا فى عهد على بن أبى طالب - رضى الله عن الجميع - لبلوغه سن الشيخوخة .

ولقد تطاول به العمر حتى يقال إنه بلغ مائة وعشرين سنة، وقيل مائة وثلاثين، وقيل مائة وستين، ويقال إن وفاته كانت فى أول خلافة معاوية - رضى الله عنه - وأنه مات وهو ابن مائة وسبع وخمسين عاما[1] .

ويذكر بعض الرواة والمؤرخين أنه شغل نفسه بعد إسلامه بالقرآن ولم ينظم من الشعر إلا القليل، بل يقال إنه نظم بيتا واحد واختلف فيه، فقال أبو اليقظان هو :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى

حتى كسانى من الإسلام سربالا

وقال غيره: بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وعندما سئل لبيد عن شعره كتب سورة البقرة مكان الشعر[2] .

والحق أن له أشعارا كثيرة تفيض بمعانى الإسلام ومثاليته الروحية ،

---

(١) انظر الشعر والشعراء جـ١ ص٢٨١

(٢) الشعر والشعراء جـ١ . ص٢٨١

ومن ثم يقول فيه ابن سلام:

" كان عذب المنطق، رقيق حواشي الكلامي، وكان مسلماً رجل صدق،[١] فمن شعره في هذا الشأن قوله مشيرا إلى أثر الإسلام في نفسه، فاتجه في إشعاره إلى الله عز وجل منيبا إليه، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره، يقول في قصيدة له:[٢]

إنما يحفظ التقى الأبرار ... وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله ترجعون وعند ... الله ورد الأمور والإصدار

كل شئ أحصى كتابا وعلما ... ولديه تجلت الأسرار

إن يكون في الحياة خير فقد أنـ ... ـظرت لو كان ينفع الإنظار

عشت دهراً ولا يدوم على الأيـ ... ـام إلا يرمرم ويعار

وعلى هذا النحو يظل لبيد - رضى الله عنه مستمسكا بالعروة الوثقى زاجرا نفسه عن الدنيا وخدعها، داعيا إلى أن يكف الإنسان عن سيئاته، ومرغبا له في الباقيات الصالحات حتى يختم بقية أجله بخير عمله.

المقصود بالحكمة:

نستخلص من كل التعريفات التي قالها الباحثون عن تعريف الحكمة بأنها نتاج فكرى ناضج خبر صاحبه الحياة وتعرض لمواقف يحاول تلخيصها

---

(١) طبقات الشعراء، إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي، طبع: دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ص٣٩.

(٢) الديوان: ص١٥٣ / ١٥٤.

فى كلمات موجزة تتجاوب مع كل نفس بحيث تراها ترجمة عما يراودها ويعتمل بها من آمال، وتنفيسا عما استبد بها من آلام، وبذلك تعيش الحكمة، وتصاحب الزمن متنقلة من جيل إلى جيل، بنفس القوة والحيوية التى ولدت عليها، لأنها انفلتت من يد صاحبها، وغدت ملكا للإنسانية قاطبة، بتعبيرها الصادق عن فكرة عامة تسلم بها كل العقول، وتتأثر بها كل النفوس[1] .

إن فى ألفاظ بيت من الشعر يتضمن معانى الحكمة قوة وإيحاء ومغناطيسية، لا يقوى أى بيت آخر خال من الحكمة على الرقى إلى مستواه من الناحية المعنوية إذا كان البيت مسبوكا سبكا جيدا، ومصوغا صياغة رائعة لما يحتويه من أسرار عجيبة، وأمور كانت تخفى على النفس ومعان خالدة تدخل إلى القلب بدون استئذان بسحرها العجيب وألفاظها الخلابة التى تشد إليها المشاعر وتجذب نحوها النفوس[2] .

بواعث الحكمة لدى لبيد:

إن الناظر فى شعر لبيد - رضى الله عنه - يجد أن لبيدا قد برع فى أغلب الأغراض والفنون الشعرية، وأجاد وأكثر فى البعض منها وأثار إعجاب الكثير من النقاد القدماء، وديوانه ملئ بقصائده المتنوعة من وصف وفخر ورثاء

---

(١) راجع: الحكمة فى شعر المتنبى، د/ حسن على فرعاوى ص ٩، ١٠ .

(٢) المرجع السابق : ص١٧ .

وحكمة وتأمل، وقد كثرت لديه الحكمة والتأمل، وكان ذلك أمراً طبيعياً لتوافر عدة أسباب منها ما يتصل بنفسه، ومنها ما يعود إلى بيئته ونشأته، فأخباره وشعره وسيرته تجمع كلها على أنه كان رجلا مترويا متعقلا، ذا رأى سديد، ونزعة نحو الخير، وحلم ومسالمة، وقد نشأ فى أسرة فيها الكثير من الرؤساء والحكماء، فكسب منهم الحكمة والعقل الراجح، والرأى السديد، وأفاد من خبراتهم وتجاربهم،وقد شارك لبيد هؤلاء الرؤساء فى حروبهم ومنازعاتهم، ورافقهم منذ كان صغيرا فى أسفارهم وفى وفادتهم على الملوك، ثم واظب على حضور مجالس الملوك تلك، بحيث صار له شأن كبير، وتمرس فى رحابها على مناضلة الخصوم ومنازعة الغرماء، يضاف إلى ذلك كله عمر طويل، طال حتى سئم منه، فأفاد خبرة وثقافة من تعاقب الأجيال، وقصص الماضين وأخبار الملوك وأبناء الأمم البائدة، ومما يرتبط بهذا العمر أنه شهد أجيالا تمضى وأخرى تنشأ، وفقد أهله وأحبابه، وأصيب بأخيه الذى يحبه ويؤثره، فكان من ذلك كله أن اتسمت حكمته بنظرة حزينة كئيبة، يتأمل ويطيل التأمل فى الموت وتصاريف الزمان الذى يقهر كل قوى، كما اتسمت بروح صافية فى سياق تسبيح الله عز وجل كما نلمح فيها العظة والعبرة عندما يتحدث عن الماضين من الأمم والملوك، كما تحمل فى طياتها سأم وضجرا فى الحياة وذلك حينما يتحدث عن الشيخوخة وتطاول العمر .

وهكذا تتوا لى حكمه أبياتا شاردة وأمثالا يتمثل بها أو قصائد طويلة النفس تزدحم فيها الآراء وتجارب السنين .

وللبيد من هذا الشعر الحكمى الذى يطول فيه النفس، قصيدتان كلتاهما فى الرثاء، واحدة فى رثاء أخيه أربد، والثانية فى رثاء النعمان ابن المنذر، وهما من القصائد التى تتيح للقارئ أن يتعرف أو يطوف مع بعض من نماذج الشعر الحكمى والتأملى عند لبيد - رضى الله عنه .

نماذج من شعره الحكمى والتأملى :

من تأملاته فى الإنسان والحياة ما تجده فى مطولته التى هدف من خلالها إلى غايات سامية، حيث كان يحلم بحياة صافية نقية خصبة فلجأ إلى تصويرها تصويرا دقيقا يكشف عما فيها من الحب والغيرة والإصرار، وقد بدأ مطولته بقوله:[1]

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها[2]

فمدافع الريان عدى رسمها ... خلقا كما ضمن الوحى سلامها[3]

---

(١) الديوان : ص ٢٣٦ .

(٢) منى: جبل أحمر عظيم يشرف على ما حوله من الجبال بالقرب من طخفة فى بلاد غنى وكلاب وهو غير منى مكة

(٣) المدافع: مجارى الماء، الريان واد بحمى ضربة، السلام: الحجارة .

دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها[1]

رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق الرواعد جودها فرهامها[2]

من كل سارية وغاد مدجن وعشية متجاوب إرزامها

فعلا فروع الأيهمان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها[3]

لقد بدأ شاعرنا مطولته كما رأينا بالوقوف على الأطلال على عادة الشعراء ووصف ما تبقى من آثارها بعد أن نزح عنها أهلها محاولا الكشف عن مظاهر الخراب والفناء، وما أشاعته من إحساس بالوحشة والخواء، ومن تأمل في الحياة التي زالت والتي كانت روحا نابضة بالحيوية والنشاط وجسما حيا وعالما مشحونا بالحياة والحركة والدفء، فإذا كل ذلك قد عفى عليه الزمن فتحولت الحياة إلى موت والحركة إلى سكون والدفء إلى برودة وجمود .

وقد تبدو الخرائب غريبة أول النظر لأنها ليست جزءا من النمط المألوف لتجارب الحياة، وربما تظل تحتفظ بغرابتها أو اغترابها وقتا طويلا، ولربما كان هذا مصدر الاعتزاز بها واللجوء إليها، خرائب غريبة تجتذب المتأمل

---

(١) تجرم: انقطع ومضى: حلالها وحرامها: الأشهر الحلال الثمانية والحرم الأربعة: رجب ذو القعدة، ذو الحجة والمحرم .

(٢) رزقت: دعالها، وقيل خبر لادعا، مرابيع النجوم: الأنواء الربيعية، صابها، جادها، الودق: المطر القريب من الأرض، والجود والرهام: المطر .

(٣) الأيهقان: الجرجير البرى، أطفلت: ولدت فصار معها أطفالها ولا يقال أطفلت أنعامها، لأن النعام تبيض ولا تلد الأطفال، ولكنه اتبعه بقوله: ظباؤها، الجهلتان، جانبا الوادى .

الغريب الذى يريد أن يقف عند مشارف الوجود، ولكن المتأمل إذا تعمق الاغتراب وجد فيه أصالة وتصور له أعراقا، وربما تكون أوحت هذه الخرائب إلى نفس الشاعر أنها جزء من حالة السيولة الأولى التى نشأت منها كثافة المادة، ومن ثم يتخيل لبيد أن الخرائب تضرب فى جذور الحياة، ويتصور نفسه موصولا بأعماقها، رأى لبيد فى هذه الخرائب عالما من الجوار والجيران أما المعنى المراد فيستتبعه أن يكون فى ذهن الشاعر لبيد الذى لم يدر بفكره حينئذ حالة السيولة الأولى التى نشأت منها كثافة المادة ... وما إلى ذلك من الحقائق الطبيعية والظواهر الكونية وما يرتبط بها من الاصطلاحات الكيميائية، استروح لبيد من خلاله الحرية فى أوسع مجالاتها، لقد كشفت السيول التى تساقطت عليها عن بعض الآثار المتناثرة هنا وهناك، وبدت تلك الآثار أشبه ما تكون بالكتابة المنقوشة على الحجر، وفى البيت الثالث عاد الشاعر إلى تصوير الزمن الذى مضى على هذه الديار منذ فصل أهلها، فقد مرت أعوام وأعوام بأيامها ولياليها وشهورها وفصولها، وعلى الرغم من أن صياغة البيت توحى إلى تقرير حقيقة إلا أن وراء هذه الحقيقة، ما وراءها من الإحساس بالزمن الذى يأتى على كل شئ، والذى هو كفيل أن يحول المنازل الآهلة بسكانها إلى آثار مبعثرة متناثرة وإلى خواء ووحشة .

ثم يلتفت الشاعر حوله مرة أخرى فيجد أن الزمن نفسه الذى يأتى على كل شئ، هو ذاته الذى استطاع أن يغير وجه الأرض، وأن يوجد من السكون

حركة ومن الموت حياة، فما لبثت السماء أن جاءت بالأمطار فأخصبت الدار وانتشر فيها العشب وعمر ما عليها من ديار وعلت فروع الجرجير البرى وسكنتها الظباء والنعام ذوات الأطفال وشعرت بالاستقرار فباضت النعام وولدت الظباء، وأقامت الأبقار على أولادها ترضعها، وتكاثرت الأولاد حتى صارت قطعانا تملأ المكان، إذن لقد استحال كل شئ إلى فيض وعطاء أوحت بها تلك الصور التلقائية التى لا تتجهم ولا تهدو، بل تجود على العكس - بما عندها دون احتياط أو توجس .

كل شئ فى هذا العالم يمضى على شاكلته حرا، والأحداث تتتابع دون تزاحم ولا تداخل ودون حساب أو تغيير .

ولبيد على الرغم مما يراه من صورة الحياة الجديدة متعلق بالذكرى يرجع البصر مرة أخرى فى كثير من الحسرة إلى صورة الدار الدارسة التى كشفت السيول عن بعض معالمها يقول:[1]

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زبر تجد متونها أقلامها[2]

أو رجع واشمة أسف نؤورها ... كففا تعرض فوقهن وشامها[3]

---

(١) الديوان : ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) الزبر: جمع الزبور وهو الكتاب، تجد متونها أقلامها: تعيد عليها الكتابة بعد أن درست .

(٣) الرجع: الترديد، أسف: سقى، النؤور: مادة الوشم، قيل هو شحم يحرق ثم يكب عليه إناء ثم يؤخذ دخانه من الإناء، الكفف: جمع كفة وهى الدارة والحلقة .

فوقفت أسألها: وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها[1]

عريت وكان بها الجميع فأبكروا منها وغودر نؤيها وشمامها[2]

وهنا التقى الحاضر بالماضى، لقد بعث المطر الحياة،ثم راح السيل يجدد الماضى ويكشف عنه الركان، فإذا الكتابة تعاد وتتجدد، وإذا الوشم يردد مرة إثر مرة، وإذا الزمن تيار لا يعرف الانقطاع .

وأمام هذه البقايا التى أظهرتها الأمطار، والتى هى بمثابة الحروف المكتوبة على صفحة كتاب أبلاه الزمن يقف الشاعر ليستنطق الحجر عساه أن ينبئه بخبر عن هؤلاء الذين ارتحلوا فيثلج صدره أو يطفىء شيئا من لواعج شوقه وحنينه، ولكن هيهات أن ينطق الحجر وهيهات لهذه النفس أن تجد شفاءها فى سؤال حجر لا يجدى ولا ينفع، فيالخيبة الأمل، ويا لضيعة الرجاء .

السؤال ينطوى على الشعور بالعجز والحاجة إلى التأمل الشائك، ثم تجده يخلع إحساس اللوعة والأسى على النؤى والثمام اللذين يشعران بما شعر به الشاعر من لذعة الحنين وألم الفراق عندما غادرهما أهل هذه الدار وارتحلوا، أو ذكروه بمواقف وقفها أمام ديار له بها ارتباط وجدانى وبأناس كانوا يقطنونها تجمعهم به وشيجة القربى أو وشيجة الحب .

---

(١) الصم: الصخور . الخوالد البواقى

(٢) عريت: خلت ، أبكروا: عذوا ، النؤى: الحفير حول الخيمة ، الثمام: شجر .

وكان من الطبيعى وقد انتقل الشاعر بوجدانه إلى الماضى أن يتذكر لحظة الوداع التى تتركز فيها دائما مشاعر الحنين والحب، ومعانى الوفاء، يقول:[١]

شاقتك ظعن الحى حين تحملوا فتكنسوا قطنا تصر خيامها[٢]

من كل محفوفة يظل عصية زوج عليه كلة وقرامها[٣]

زجلا كأن نعاج توضح فوقها وظباء وجرة عطفا آرامها[٤]

حفرت وزايلها السراب كأنها أجزاع بيشة أثلها ورضامها[٥]

لقد تجمعت لدى الشاعر فى هذا الموقف جملة من الانفعالات وهذه غالبا ما ترتبط بإحساس الإنسان عندما يشعر بقسوة الحياة عندما تفرق بين الأصدقاء والمحبين تحت ظروف قاسية قاهرة لا يملك لها الإنسان دفعا، ومن ثم فإن تصوير لبيد للحظة الوداع هنا مرتبط ارتباطا كاملا بالموقف النفسى العام الذى صدر عنه منذ بدأ فى تصوير بقايا الديار .

---

(١) الديوان : ٢٣٨ .

(٢) شاقتك: أثارت شوقك، تكنسوا: خلوا الكناس أى اتخذوا الهوادج كنسا ، قطنا: جماعات. تصر: تحدث صوتا

(٣) الزوج: النمط الواحد من الثياب ، كلة: ستر ، قرامها: القرام: الغطاء المرسل على جانب الهودج .

(٤) زجلا: جماعات . توضح: موضع ، وجرة: بلد ، عطفا: ثانية الأعناق .

(٥) زايلها: فارقها ، الأثل: شجر ، الرضام: الصخور .

إنها قصة الحياة فراق فلقاء، ثم لقاء ففراق، والإنسان بين هذا كله وسط أمواج من العطف والمشاعر هادئة حينا وصاخبة أحيانا: ينتقل من ذروة الفرح إلى حضيض الشقاء .

وهناك لحظات تأمل مشحونة بالألم حينما يودع أحبابه، إنها لحظات عاشها لبيد - رضى الله عنه - بكل دقائقها فلم ينس منها شيئا، لم ينس اللحظة التى صعدت فيها النساء الهوادج وكأنهن الظباء دخلن الكناس، ولن ينسى ذلك الإحساس الذى غمره عندما شاهد صديقاته وهن يتحملن جماعات فأحس بما ينبعث من عيونهن من عطف ورقة، وبما تفيض به وجوههن من مشاعر الحنان والحب، بل إن صوت الهوادج - وهى تهتز ساعة التحمل - ما يزال يرن فى أذنيه .

ثم تأتى بعد ذلك اللحظة التى تحركت فيها القافلة واندفعت فى السير، إنها لحظة رهيبة تبلغ عندها مشاعر اللهفة أقصاها حتى ليكاد يحس المحب أن جلده ينتزع منه عندما يرى ركب أحبابه يغادر المكان وهو واقف مسلوب الإرادة لا يملك أن يغير من الأمر شيئا، ولو كان الأمر بيده لحال دون وقوع هذا الفراق، ولكن لا حيلة فيما لابد من وقوعه .

لقد استطاع لبيد أن يجسد تلك اللحظة التى رسمتها مشاعره الآسفة الحزينة على هذا الفراق، فكأنه لا يريد أن تنتهى هذه الرحلة نهاية متسرعة عجلى، وإنما هو يخرجها قطرة قطرة، ونقطة نقطة لأنه ضنين بها،

فهو يود أن يعيش معها إلى أن تغلبه حركة البعاد التى فى النهاية تحكم على هذه الصورة بالتلاشى والفناء، ولعله يتبين، من خلال تتبع ما جاء فى الأبيات من صور ومشاعر وكلمات وربطها بالموقف الوجدانى العام أنها ترمز إلى الإحساس بالصراع بين الحياة الموت لأن صورة العدم التى ترمز لها الدار الدارسة تقف جنبا إلى جنب مع صورة الحياة النامية المزدهرة التى تحولت إليها الدار بعد أن سكنها الوحش وبعد أن تمكن من إنجاب الذرية النابضة بالحياة و الحركة من الظباء والنعام والبقر، وإذا كانت صورة اللهفة والإحساس بلوعة الفراق قد غطت على الجانب الآخر من الصورة غمرت الجو كله بغلالة من الحزن والكآبة فإن ذلك لا يدفع ما يحس من رغبة وإرداة البقاء، وإذا كان الحزن قد غمر الشاعر عندما أحس بمعانى الزوال والفراق والعدم، فقد أعقب ذلك موجة أخرى أمكنها من أن تشد من عزيمته وأن تدفعه إلى مجابهة الواقع فى كثير من الحزم والقوة والانتصار على الحياة ولعل ذلك يبدو واضحا عندما رأى أنه لا سبيل إلى الاسترسال فى هذا الحنين الذى لا طائل تحته، وقد استطاع أن يمضى فى طريق الحياة بخطى قوية وثابتة، ومن ثم يقول:[1]

بل ما تذكر من نوار وقد نأت

وتقطعت أسبابها ورمامها[2]

---

(١) الديوان : ص٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) نوار: اسم امرأة ، الأسباب: الحبال ، الرمام الجبال الضعاف التى أخلقت وكادت تتقطع .

مرية حلت بفيد وجاورت

أهل الحجاز فأين منك مرامها[١]

إلى أن يقول:

فاقطع لبانة من تعرض وصله

ولشر واصل خلة صرامها[٢]

وأحب المجامل بالجزيل وصرمة

باق إذا ضلعت وزاغ قوامها[٣]

بطليح أسفار تركن بقية

منها فأحنق صلبها وسنامها[٤]

فالشاعر هنا يريد أن يقطع أمله بصاحبته التى أوغلت متعمدة فى البعد عنه وأسرفت فى القطيعة حتى لم يعد هناك ما يدعوه إلى الحفاظ عليها أو حتى فى الاسترسال فى حنين أو لهفة لا جدوى من ورائهما، بل لقد أصبح من خطل الرأى أن يتمسك بعلاقة لم يعد لها وجود حقيقى، فقد تقطعت جميع الخيوط التى تربطه بصاحبته، وأصبح التعلق بها ضربا من السفه، ومن

---

(١) مرية: منسوبة إلى بنى مرة بن عوف بن ذبيان فيد: فلاة واسعة ، والفيد ليست مجاورة لأهل الحجاز، فروى "أهل الجبال" أى قرب جبلى طيء ، وذهب الزوزنى إلى أنها تحل بفيد أحيا وتجاور أهل الحجاز أحيانا - الديوان ص ٢٣٩ .

(٢) اللبانة: الحاجة: تعرض وصله: لم يستقم لك وصله، الصرام: القطاع .

(٣) وأحب: أعط، المجامل: الذى يحامل بظاهر المودة ضلعت مودته: إعوجت، زاع قوامها: مال ولم يستقم .

(٤) الطليح: الناقة التعبة ، تركن بقية: لم تأكل الأسفار لحمها أجمع ، أحنق: ضمر .

ثم عزم الشاعر على أن يقطع صلته بنوار، وأن يمضى فى سبيله مجابها الواقع ومنتصرا عليه، غير عابىء، بكل ما يلاقيه من مظاهر التحدى[١] .

ولم يكد لبيد يتركنا فى غمرة انبهارنا بذلك الموقف بصوره الرائعة الموحية حتى ينقلنا إلى موقف آخر فيه الكثير من التأمل فى الكون والحياة، ذلك الموقف الذى يتحدث فيه عن قصة حمار الوحش وأتانه، والذى تتمثل فيه قصة الصراع الدامى فى مجابهة الحياة والطبيعة ومحاولة التغلب عليها، وقد اتخذ لبيد من تشبيه ناقته بهذه الحيوانات وسيلة للحديث عنها يقول:[٢]

أو ملمع وسقت لأحقب لاحة

طرد الفحول وضربها وكدامها[٣]

يعلو بها حدب الإكام مسحج

قد رابه عصيانها ووحامها[٤]

---

(١) راجع: صوت الشاعر القديم، د/ مصطفى ناصف، طبع: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م ص٢١، ٢٢ ، وقضايا النقد الأدبى - بعين القديم والحديث - د/ محمد زكى العشماوى ، طبع: الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية - الطبعة الثالثة - ١٩٧٨م ص١٤٦ - ١٥٤ . ولبيد بن ربيعة العامرى - حياته وشعره، أ/حسن جعفر نور الدين ، طبع: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط أولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م ص١٣٥ .

(٢) الديوان: ص٢٤٠ - ٢٤٢ .

(٣) الملمع: الأتان التى استبان حملها، وسقت: جمعت ماء الفحل، لاحه: أضمره وغيره، الكدام:العض .

(٤) حدب الإكام: ما احدوب منها مسحج: معضض قد عضضته الحمير، عصيانها: امتناعها .

بأحزة الثلبوت مربأ فوقها

قفر المراقب خوفها آرامها[١]

حتى إذا سلخا جمادى سنة

جزءا فطال صيامه وصيامها[٢]

رجعا بأمرهما إلى ذى مرة

حصد ونجح صريمة إبرامها[٣]

ورمى دوابرها الشفا وتهجت

ريح المصايف سومها وسهامها[٤]

فتنازعا سبطا يطير ظلاله

كدخان مشعلة يشب ضرامها[٥]

مشمولة غلثت بنابت عرفج

كدخان نار ساطع أسنامها[٦]

فمضى وقدمها وكانت عادة

منه إذا هى عردت إقدامها[٧]

---

(١) الأحزة: جمع حزيز وهو المكان الغليظ، الثلبوب: موضع .

(٢) سلخا: قضيا ، جزءا: اكتفاء بالرطب .

(٣) رجعا بأمرهما: صار الشأن إلى الحمار بعد أن طال تنازعهما الحصد: المحكم، الصريمة: العزيمة

(٤) السفا: شوك البهمى . السوم المرور، السهام، ريح حارة

(٥) سبطا: غبار ، مشعله: نار ، الضرام: وفاق الحطب .

(٦) غلثت خلط ما أوقدت به ، نبات عرفج: كثير الدخان .

(٧) عردت تركت الطريق وعدلت عنه .

فتوسطا عرض السرى وصدعا

مسجورة متجاور أقلامها[1]

محفوفة وسط اليراع يظلها

منه مضرع غابة وقيامها

فالشاعر يتحدث عن الحمار الوحشى وأتانه متخذا ناقته سبيلا للحديث عنهما، كما سبق أن ذكر - حيث شبه ناقته بأتان وحشية قد حملت من فحل شديد الغيرة عليها يلازمها أينما تذهب ويطارد عنها الفحول التى تهاجمها ويتعرض من أجل ذلك لكثير من العنت والشدة، فعلا جسده من آثار العض والضرب ما غير لونه وأحاله إلى جسد مقشور من كثرة العض والكدم، ومع هذا فقد حرص على أن ينأى بها بعيدا عن الأماكن التى تتعرض فيها لمطاردة الحمر الأخرى فيرتفع بها فوق الأكام والصخور وقد زاده شغفا بها وغيرة عليها ما رآه من عصيانها وتمنعها عليه، وقد كانت من قبل سمحة طيعة، فاعتلى بها مكانا مرتفعا حتى يتيسر له أن يرقب من هذا المكان كل ما عساه أن يكون مستترا أو مختفيا بأعلام الطريق من الصيادين، وحتى يجنب أتانه التعرض لأى خطر أو إصابة، وحتى يكونا معا منعزلين وبعيدين عن مزاحمة الفحول الأخرى ومضايقتها لهما، وتظل الأتان وفحلها فوق هذه الربوة المرتفعة المعشبة سعيدين بهذه العزلة وبما يطعمان من نبات رطب، فيقضيان

---

[1] السرى: النهر الصغير - مسجورة: عين مملوءة، والقلام: نبت .

أشهر الشتاء الستة، حتى إذا أقبلت شهور الصيف، انطلقا يريدان الماء، فراحت الأتان تعدو وهو يتبعها بعدو على جانب منها تارة، ويرتقى النجاد والربا يرقب الطريق تارة أخرى، وهما فى هذا العدو يثيران غبارا كأنه غلالة رقيقة يتجاذبانها، أو دخان نار العرفج الساطعة أسنامها حتى إذا بلغا عين ماء فيشقاها فرحين بها، وقد أحاط بهذه المياه غاب من القصب الكثيف المتجاورة على أن بعض هذا القصب قد أحالته الرياح وصرعته أما بعضه الآخر فما يزال قائما .

وفى هذا الموقف لابد من تأمل الأبعاد غير المباشرة التى تعمل الكلمات على إبرازها وذلك بتتبع أجزاء الصورة، وإدراك ما ينطوى وراء العبارات من إحساس موحد .

إننا أمام أتان حامل، وفى هذا رمز للحياة والخصوبة والنماء والميلاد، وأيضا أمام علاقة حية بين أتان وفحلها يمثلان قصة الصراع من أجل الحياة، ومن أجل بقاء النوع، ويستنفدان طاقتهما وجهدهما فى تحقيق وجودهما، وتقاوم إرادتهما الحية كل ما يعترض طريقهما من صعاب وعقبات، ثم يظفران فى النهاية بالحياة بعد أن ينتصرا على كل ما تتحداهما به الطبيعة .

ومع مسيرتنا التأملية فى أرجاء الكون وفى هذه الحياة مع شاعرنا لبيد، نجده ينقلنا إلى موقف آخر من مواقفه التأملية الرائعة الذى يمثل الصراع

الحى من أجل البقاء والانتصار على الموت إنه قصة البقرة المسبوعة التى عدت على وليدها العوادى فنجده يقول:[١]

أفتلك أم وحشية مسبوعة ... خذلت وهادية الصوار قوامها[٢]

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم ... عرض الشقائق طوفها وبغامها[٣]

لمعفر فهد تنازع شلوه ... غبس كواسب لايمن طعامها[٤]

صادفن منها غرة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها[٥]

باتت وأسبل واكف من ديمه ... يروى الخمائل دائما تسجامها[٦]

يعلو طريقة متنها متواتر ... فى ليلة كفر النجوم غمامها[٧]

تجتاف أصلا قالصا متنبذا ... بعجوب أنقاء يميل هيامها[٨]

فالقصة هنا هى قصة البقرة الوحشية التى أكلت السباع وليدها فهى حزينة عليه تبحث عنه، ولا يستطيع امرؤ مهما قسا قلبه أن ينسى قصة هذه الأم التى لم تكد تمض فى طريقها مع صديقاتها حتى اكتشفت أنها خذلت ولدها فعادت تلتمسه فلا تجده، وهى تلح فى التماسه هائمة فى الأرض ما

---

(١) الديوان: ص٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) الهادية: التى تهدى الصوار، أى تكون فى أوله ، والصوار: القطيع من بقر الوحش .

(٣) خنساء: بقرة قصيرة الأنف ، الفرير: ولد البقرة .

(٤) لمعفر: من أجل معفر (ابنها) القهد: ضرب من الضأن ، الغبة: صفرة إلى سواد أو ذئاب بهذا اللون .

(٥) الغرة: الغفلة .

(٦) أسبل: سال واسترخى .

(٧) كفر: غطا وستر .

(٨) تجتاف: تدخل فى جوفه ، قالص: مرتفع الفروع .

قدرت على الهيام، صائحة منادية ما وجدت قدرة على الصياح والنداء، ولكن وليدها كان قد لقى مصرعه، ولم يبق منه غير جثة ملقاة على الأرض قد عفرها التراب وأحال لونها الأبيض إلى لون رمادى، وتجاذبت أشلاءها وبقاياها ذئاب مدربة على الصيد قادرة على الفتك بفريستها والنيل منه، فما كادت تغفل عن وليدها لحظة حتى اهتبلت الذئاب هذه الفرصة على وحيدها فأهلكته .

ولبيد - رضى الله عنه - يزيد من إحساسنا بوقع المأساة وفظاعتها عندما أضاف تلك الإضافة البارعة حين جعل الكارثة تقع بتدبير من قدر محتوم لا يملك أحد دفعه ولارده، وحين جعلها تقع فى لحظة غفلة قصيرة كانت البقرة فيها مشغولة عن طفلها، وحين اشار إلى عجز أية قوة عن دفع الموت بقوله : "إن المنايا لا تطيش سهامها" فإنما كان قصده أن يثير فينا الإحساس بفظاعة المأساة التى لم يكن ثمة سبيل إلى الفرار منها أو تجنبها .

وهنا تجده يتتبع اللحظات التى عاشتها البقرة بعد فجيعتها وكل لحظة تمثل حلقة فى سلسلة من العذاب والكفاح والشعور بالظلمة والوحدة، فقد كانت ليلة رهيبة تلك الليلة التى قضتها هذه الأم عقب موت ولدها، ليلة تعاونت فيها مظاهر الطبيعة على إشاعة هذا الجو الحزين، وشاركت فى إسدال سحب من الهموم انتشرت فى الجو كله فأكسبته ظلالا حالكة، هذه الأمور كانت كفيلة أن تجعل هذه الأم مبتسئة لولا أن قلوب الأمهات لا تعرف

اليأس، هذه الأم البائسة قد أجهدها الطلب والصياح وقد شق عليها البرد والمطر، وأخافتها ظلمة الليل، فهى تلتمس لنفسها مأوى، فلم تجد سبيلا إلا أن تدخل فى جوف شجرة، ولكن أى شجرة تلك ؟ لقد كانت شجرة تقلصت أغصانها وانكمشت من شدة البرد، بل لقد كانت شجرة منبوذة عن سائر الشجر، وقد انتحت مكانا قصيا، تحس بالوحدة والوحشة بعيدا عن رفيقاتها من الشجر، وهاهى كثبان الرمال التى تحيط بها من كل جانب تشترك معها فى هذا الإحساس بفظاعة الموقف، بل إن العدوى التى سرت من البقرة إلى الشجرة لتسرى بدورها إلى كثبان الرمال التى لا تقوى على التماسك فتنهار وتتساقط هى الاخرى .

وفى البيت الأخير استطاع لبيد أن يخلع على كل شئ يحيط بالبقرة من شجر وأغصان ورمال معانى الجمود والبرودة والقلص والنبذ والانهيار مما يجعل الإنسان يفكر ويتأمل فى أحوال هذه البقرة وما ألم بها من مأسى مفجعة، وما زال لبيد فى تأملاته إلى ما أصيبت به هذه الأم وما ينتظرها، ثم ما زال لبيد غارقا فى تأملاته فيصل القول:[1]

---

(١) الديوان : ص٢٤٣ - ٢٤٤ .

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت ... بكرت تزل عن الثرى أزلامها[١]

علهت تردد فى نهاء صعائد ... تبعا تؤاما كاملا أيامها[٢]

حتى إذا يئست وأسحق حالق ... لم يبله إرضاعها وغطائها[٣]

وتوجست رز الأنيس فراعها ... عن ظهر غيب والأنيس سقامها[٤]

فغدت كلا الفرجين نحسب أنه ... مولى المخافة خلفها وأمامها[٥]

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا ... غضفا دواجن قافلا أعصامها[٦]

فلحقن واعتكرت لها مدرية ... كالسمهورية حدها وتمامها[٧]

لتذودهن وأيقنت إن لم تذد ... أن قد أضم مع الحتوف حمامها[٨]

فتصدت منها كساب فضرجت ... برجم وغودر فى المكر سخائها[٩]

بعد أن صور البقرة فى تلك الليلة الرهيبة عاد يتأمل خطاها فى براعة عندما أسفر الصباح، إذ لم يزوها انكشاف الظلام وانحساره مع طلوع النهار إلا أسى ولوعة، وإذا خطواتها على الثرى خطوات مهزومة مقهورة لا تكاد تمشى

---

(١) أزلامها: قوائمها .

(٢) العلة: الانهماك فى الجزع والضجر نهاء: مجمع ماء، صعائد: موضع ، تؤاما: يوما وليلة .

(٣) أسحق: أخلق كما يخلق الثوب ، الحالق: الضرع الذى امتلأ باللبن .

(٤) الرز: الصوت الخفى ، راعها: أفزعها .

(٥) الفرجين: موضع المخافة ، والفرج: الواسع من الأرض .

(٦) غضفا: كلابا مسرخية الآذان .

(٧) اعتكرت: كرت على الكلاب ، المدرية: الحربة ، وهنا قرن البقرة – السمهورية: الرماح .

(٨) أحم مع الحتوف حان حمامها من بعين الحتوف .

(٩) كساب، وسخام : اسما الكلبتين اللتين قتلتهما البقرة .

حتى تتعثر، لا تساعدها قوائمها على حملها، وإن حملتها فهى تنزلق بها على أرض هشة ورمال لا تتماسك لكثرة ما أصابها من المطر ليلا .

ثم يواصل لبيد التعبير عن جزع البقرة التى لم ينقطع حنينها لولدها ولهفتها عليه، فهى منهمكة فى جزعها يغلبها الحنين إلى وليدها، وإذا بها تروح وتجئ فى هذا المكان لا تفارقه سبعة أيام بلياليها، لا يرقأ لها جفن ولا تهدأ لها ثائرة، حتى إذا يئست من اللقاء بولدها أخلق الذى كان ممتلئا لبنا فصار إلى الجفاف بانقطاع ولدها عنه، ثم يضيفها لبيد هذه الإضافة الرائعة التى استطاعت بإيحائها أن تملأ القلوب شجنا، وذلك عندما أراد أن يلفت الانتباه إلى أن الذى أبلى الضرع وأصابه بالجفاف وانقطاع اللبن لم يكن الإرضاع أو الفطام، فهى لم ترضع ولم تفطم وإنما فقدانها لطفلها وانقطاع أملها فى لقائه هو الذى أبلى ضرعها .

على أن سلسلة التحديات التى تواجهها البقرة لم تشأ أن تنتهى عند هذا الحد فلم يزل أمامها شوط آخر تقطعه فى نضال مع الحياة والطبيعة، وما يزال فى جعبة القدر من السهام ما يهدد أمنها، ويحتاج منها إلى مزيد من القوة حتى تنهض من كبوتها وتقف على قدميها وتمضى فى الطريق، طريق الحياة بعزم جديد، وما كادت هذه البقرة المسبوعة تنتهى إلى اليأس من لقاء ابنها حتى باغتها وهى فى خلوتها صوت خفى لإنسان، فتسمعت إليه وتيقظت له جميع أحاسيسها وأفزعها هذا الصوت وإن لم تعلم مصدره أو

تتبين حقيقته، ولكن يكفى أن يكون صوت إنسان حتى يبعث إليها كل هذا الرعب، فالإنسان داؤها والإنسان سقامها، وهو عدوها الأول الذى لا يفتأ ينتهز الفرص للقضاء عليها واقتناصها، فصارت حيرى، لا تدرى أى جهة تسلك، ولا كيف تتقى الخطر وإذا غريزة الدفاع عن النفس والحرص على الحياة تغلب غريزة الأمومة والحزن على الطفل الفقيد، وإذا هذه الأم الحزينة يطلبها القناص وهى فى حاجة إلى أن تنجو، فهى تعدو أمامها لا تلوى على شئ، قد ملأها الخوف، فهى تنتظر الخوف من أمام، وهى تنتظر الخطر من وراء، وهى تسلم لقوائمها النحاف كأنهن القداح حتى أيأست الرماة وفاتت النبل، ولكن عجز الرماة وقصور النبل لم يؤمنا هذه البائسة فكلاب الصيد حاضرة، وما أسرع ما أرسلها القناص، فأخذت تعدو، وأخذت البقرة تعدو أيضا، فلما استيأست من العدو، وعرفت ألا نجاة لها إلا باستقبال الخطب عطفت على هذه الكلاب فطعنتها بقرن كالرمح فى حدته وطوله، فكان بينها وبينهن حرب أسفرت عن قتيلين[1].

وهكذا أبان الشاعر فى دقة وفهم لما يريد أن يبثه فى مشاعرنا من تأملاته الصائبة وفهمه للحياة، فالحياة يعيشها كل كائن فى صراع مستمر مع الطبيعة

---

(١) راجع قضايا النقد الأدبى - بين القديم والحديث - د/ محمد زكى العشماوى ، ص١٦٢-١٧٨ ، صوت الشاعر القديم د/ مصطفى ناصف ٦٥-٦٧ ، المجموعة الكامله لمؤلفات د/ طه حسين - المجلد الثانى - حديث الأربعاء ، طبع دار الكتاب اللبنانى - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٠م ص٣٦-٤٠ ، لبيد بن ربيعة العامرى ، د/ يحيى الجبورى ، ص٢٣٠-٢٣١

وظواهرها المادية والمعنوية، وهذا الكائن إن انتصر فالنصر فى جولة أو أكثر، ثم تسلمه حتمية الموت فى النهاية إلى الفناء .

وقد جمعت الصورة التى رسمها الشاعر للبقرة ووليدها بين الأمرين معا: الموت والحياة، وقد مات الوليد وتشبثت البقرة بالحياة رغم الأخطار التى أحدقت بها وقد تمثلت هذه الأخطار فى البرد، والرياح، والصيادين بسهامهم وكلابهم، وقد قاومت كل ذلك بالهروب تارة وبالمواجهة، حيث لا يجد هذا الكائن عندما تحاول الحياة أن تصرعه إلا أن يواجهها ويتعارك معها لأن الهرب لا يجدى، فقد يضع بهذه المواجهة طريق النجاة، ولا ننسى الحرية الكاملة التى عاشتها البقرة داخل هذا الصراع فهى تختبئ عندما تظن أن فى المخبأ نجاتها، وتهرب عندما تظن أن الهرب سيعصم حياتها، وتواجه فى النهاية بأنها لم تجد سبيلا إلى النجاة إلا بمواجهة الخطر .

وهكذا قدم لنا لبيد - رضى الله عنه - صورة فنية دقيقة اتخذها وسيلة للتعبير عن تأملاته العميقة ومشاعره الجياشة، ووجدانه الحى الفياض .

من تأملاته فى الطبيعة :

والمتأمل فى شعر لبيد يجده قد اعتنى بما يحيط به من ألوان الطبيعة، فلم ينسى أن يتأمل فى الصحراء ورمالها وأطلالها وديارها، ويتأمل كذلك فى السماء والنجوم والبرق والغمام، من هذه التأملات الهادئة انطلق يصور الليل

ونجومه المتلألئة الثابتة وسحبه الداكنة وبروقه اللامعة والأمطار الهاطلة والسيول الجارفة، فأبدع فى كل ذلك، يقول[١] :

أصاح ترى بريقا هب وهنا ... كمصباح الشعيلة فى الزبال[٢]

يضىء ربابة فى المزن حبشا ... قياما بالحراب وبالإلال[٣]

كأن مصفحات فى ذراه ... وأنواحا عليهن المال[٤]

وأردف مزنه الملحين وبلا ... سريعا صوبه سرب العزالى[٥]

فبات السيل يركب جانبيه ... من البقار كالعمد الثقال[٦]

وحط وحوش صاحة من ذراها ... كأن وعولها رمك الجمال[٧]

أقول وصوبه منى بعيد ... يحط الشث من قلل الجبال[٨]

سقى قومى بنى مجد وأسقى ... نمير والقبائل من هلال

رعوه مربعا وتصيفوه ... بلا وبأ سمى ولا وبال

فلبيد يتأمل البرق وقد سهر له دون أصحابه وصوب البرق نحو نجد، ولبيد وصحبه فيما يبدو فى تهامة من أرض الحجاز، فنظر الشاعر إلى جوف

---

(١) ديوان لبيد : ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) هب: لمع وأضاء ، وهنا بعد ساعة من الليل . الشعيلة: النار ، الذبال: القتيلة .

(٣) الرباب: السحاب الذى تراه كأنه متدلى كأنه أعناق النعام الإلال: الحراب .

(٤) المالى: المناديل التى تمسكها النساء عند الندب .

(٥) الملحين: اسم موضع ، العزالى: مخارج الماء من السحاب واحدها عزلاء .

(٦) البقار: اسم جبل وقيل: واد ، العمد: البعير الذى يشتكى سنامه ، الثقال: البطئ .

(٧) صاحة: اسم جبل ، رمك واحده أرمك: أى سود .

(٨) الشث : نوع من الشجر أو هو شجر السراة .

الليل يراقب وصوبه حتى أخرج صورة دقيقة رائعة حين يضئ البرق فيسطع بضوئه على صفحة السحاب الأسود الكثيف المتدلى، وكأن الناظر يرى أحباشا محاربين شديدى السواد شهروا حرابا بيضاء ساطعة ويستعير للبرق من الإبل رغاءها حين تعزل عن صغاره وتمنع منها، فتحن إليها هادرة مرزمة، ويستعير من النساء النائحات نواحهن وندبهن وهن يحركن خرقا سودا يندبن بها، وقد لاحظ فى ذلك لون قطع السحب السود حين تتحرك فى كبد السماء، ولا يترك لبيد هذه الصورة دون أن يحققها ويستكمل جوانبها، متأملا ما أضفاه نزول الأمطار من هذه السحب المتدلية التى يسطع فيها فتبدو كأنها خيل فيها لونان: أسود وأبيض، البياض فى بطون الخيل وصفاحها وهى ترمح عن صغارها، وتجمعت الأمطار فإذا هى سيول فى أرض شاسعة تمتد من جبل (دهر) حتى (آثال) وانحدر السيل فتدفق نحو (الملحين) فغطى جانبيه، وقد ذعرت الوحوش فى جبل (صاحة) فانحطت هاربة مخافة أن يجرفها هذا السيل كما جرف أشجار الشث من أعلى الجبال، ولبيد بعيد عن هذه الديار، وهو على بعده يدعو لقومه بنى مجد وفيهم أسماء أن يرعوا نبت السماء ربيعا وصيفا هانئين منعمين مبرأين من كل داء أو وباء، ولبيد مغرم بذكر السحاب والمطر، ومعجب بالبرق ينظر إليه ويتأمل فيه فتجده يقول[1]:

---

(١) الديوان ص ١١٢

وغيث بدكداك يزين وهاده ... نبات كوشي العبقرى المخلب[1]
أربت عليه كل وطفاء جونة ... هتوف متى ينزف لها الوبل تسكب[2]
بذى بهجة كن المقانب صوبه ... وزينه أطراف نبت مشرب[3]
جلاه طلوع الشمس لما هبطته ... وأشرفت من قضفانه فوق مرقب[4]
برت نداه لم تسرب وحوشه ... بغرب كجذع الهاجرى المشذب[5]

ففى هذه الأبيات يقف أمام روضة من الرياض متأملا مشدوها ذاكرا من خلال ذلك التأمل لون النبات الزاهى والمبلل بقطرات الندى وقد سطعت عليه الشمس بضيائها فبدأ زاهيا متألقا، وقد هيأ هذا المنظر تمهيداً للحديث عن فرسه الذى قطع هذا الروض ورعاه قبل أن ترعاه البهائم والوحوش، وما زلنا فى تأملات لبيد فى الطبيعة حيث يقول[6]:

يا هل ترى البرق بت أرقبه ... يزجى حبيا إذا خبا ثقبا[7]

(١) الدكداك: ما استوى وارتفع من الأرض، وهاده: الأرض المطمئنة واحدها وهدة العبقرى: نسبة إلى أرض عبقر ، مخلب: مخطط بألوان الصبغ

(٢) أربت: مكثت وأقامت ، الوطفاء: السحابة القريبة من الأرض ، جوله سوداء ، هتوف يصوت فيها الرعد .

(٣) البهجة: الزهر والحسن، المقانب: جماعات الخيل أى صانه الفرسان ومنعوا أحد أن يرعى ذلك النبات

(٤) القضفان: الجبال الصغيرة، المرقب: أعلى الجل .

(٥) بسرت: كنت أول من أتاه ، الغرب: هنا الفرس ، المشذب: الذى شذب عنه ليفه

(٦) الديوان: ص١٠٤-١٠٥

(٧) أرقبه: أرصده يزجي: يسوق ، الحبى: السحاب ، خبا: سكن ، ثقب: أضاء .

قعدت وحدى له، وقال أبو ... ليلى: متى يغتمن فقد دأبا[١]
كأن فيه لما ارتفقت له ... زيطا ومرباع غانم لجبا[٢]
فجادا رهوا إلى مداخل فالصحـ ... رة أمست نعاجه عصبا[٣]
فحدر العصم من عماية للسهـ ... يل وقضى بصاحة الأربا[٤]
فالماء يجلو متونهن كما ... يجلو التلاميذ لؤلؤا قشبا[٥]
لاقى البدى الكلاب فاعتلجا ... موج أتيبهما لمن غلبا[٦]
فدعدعا سرة الركاء كما ... دعدع ساقى الأعاجم الغربا[٧]
فكل واد هدت حوالبه ... يقذف خضر الدياء فالخشبا[٨]
مالت به نحوها الجنوب معا ... ثم ازدهته الشمال فانقلبا[٩]
فقلت صاب الأعراض ريقة ... يسقى بلادا قد أمحلت حقبا[١٠]
لنزع من نبته أسيم إذا ... أنبت حرا البقول والعشبا[١١]

---

(١) يغتمن: يسكن ، دأب: اعتمل .

(٢) الريط: واحدها ريطة : قطعة قماش

(٣) رهوا: مطرا خفيفا لا صوت له ، مداخل والصحر .

(٤) العصم: الأوعال ، عماية: جبل فى البحرين ، صاحة: جبل .

(٥) التلاميذ: غلمان الصاغة ، القشب: الجديد .

(٦) البدى و الكلاب: واديان .

(٧) دعدع: ملأ ، الغرب: الدلو .

(٨) حوالبه: الأودية التى تأخذ منه ، الرباء: القرع .

(٩) ازدهته: استخفته .

(١٠) الأعراض: أودية فى أرض الحجاز ، صاب: جاد ، ريقه: أول مطره .

(١١) الديوان: ص١٠٦ أسيم: ترخيم أسماء، حر البقول: مالان منها ولم تكن له مرارة .

فنراه هنا يذكر أن ربما بات ليلة متكئا على مرفقيه يتأمل فيها البرق يلمع فى السماء مايكاد يخبو حتى يضئ، ويندفع أمامه سحاب كثيف ثقيل، فإذا لمع البرق تجلى ضياؤه على هذه السحب، فكأنها - عندئذ - ملاحف بيض منشورة، ويتسمع إلى هزيم الرعد فيخال قطعانا من الأغنام، أخذ الرئيس مرباعه منها فافترقت الأمهات على صغارها فما تنفك فى ثقاء وصياح، حتى إذا نزل المطر وساح فى الأرض فصار سيولا تفزع من هوله الوعول فتنحط من شعاف الجبال، وتخرج النعاج من مواطنها قطعانا يدفعها السيل ويخيفها المطر، ويلتفت لبيد إلى هذه النعاج والوعول وقد بللها المطر، ويرى متونها وقد جلاها الماء وكأنها لؤلؤ جديد جلاه غلمان الصاغه، وهذا المطر الكثيف قد تجمع وصار سيولا متدافعة ملأت الأودية فالتقى بذلك سيل (البدى) وسيل (الكلاب)، فأى الموجين ظهر دفع سيل الوادى الآخر، ويستمر لبيد فى تأملاته فيرى سهل الركاء وقد ملأه الماء حتى أفعم، فتحضر فى ذهنه صورة ساق من سقاة العجم يملأ جابية كبيرة، ثم فى تتبع سبحاته وتأملاته يسوق لنا جوانب أخرى للنبات والغثاء وقد طفا على وجه هذا السيل الطامى، والأمطار ما زالت هاطلة ورياح الشمال تدفع السحب الثقيلة، وإذ به يأمل أن تهطل فى أرض الحجاز، وتملأ بالماء أوديتها، وتنبت فى قرى حبيبته أحرار البقول ويانع الزهر، لترعاه أسماء ويرعاه قومها، ذوو المجد والحسب،

فانظر فى هذه القطعة من منظومه كيف بدأها متأملا فى السماء وكيف أنـهاها رياضا ناضرة ترعاها أسماء حبيبته وقومها[1] .

ثم نسير مع لبيد فى ديوانه فنجده يعرض قصيدة من قصائده التى قالها فى وصف رحلة الأحباب ومناظر الوحش والحمر، إذ كان لبيد يحن إلى الطبيعة، فهو دائم التنقل فى أرجائها، ينشدها غناءه العذب الصافى، ففى معرض الأطلال تجد نفسك أمام إحساس عامر بالحياة لا يزول، إنه إحساس الشاعر الذى يرفض فكرة الغناء، فقد درست المنازل فى المواطن التى يذكرها لبيد فى قصيدته، ولكن هذا الدرس سرعان ما ينتهى وتعود الحياة لتدب من جديد فى معاقل الصحراء، فالشاعر لا يرضى للحياة فى تلك المنازل أن تندثر، فيستعيدها بصورتين ضد الفناء، إنهما صورة الكتابة المتجددة وصورة الوشم، يقول:[2]

درس المنـا بمتـالع فأبـان ... وتقادمت بـالحبس فالسوبان[3]

فنعاف صـارة فالقنـان كأنـها ... زبـر يرجعـها وليـد يمـان[4]

متعـود لحـن يعيـد بكفـه ... قلما علـى عسب ذبلـن، وبـان[5]

---

(١) راجع: لبيد بن ربيعة العامرى، د/ يحيى الجبورى ، ص٢٦٢ .

(٢) الديوان: ص٢٧٤ .

(٣) المنا: المنزل متالع وأبان والحبس: جبال، السوبان: واد لبنى تميم تقادمت: قدمت .

(٤) النعاف: رؤوس الأودية ، صارة فالقنان: جبلان لبنى فقعس ، زبر: كتب ، يرجعها: يرددها .

(٥) لحن: فهم فطن ، الذابل: اليابس .

أو مسلم عملت له علوية رصنت ظهور رواجب وبنان[1]

فتأمل هذه المواطن الدارسة كيف تبعثها من جديد كتابة غلام يمنى ذكى على سعف النخل وأشجار العرعر والبان، وخص اليمن بالذكر لأن أهل اليمن أهل كتابة - أوشم امرأة على قصب الكف وبنانه وكأن آثار الدار زمام فى خرزة، وهكذا تبدو تلك الأطلال تراثا عزيزا على النفس، ولذلك كانت رغبة شاعرنا فى أن يحصنها من يد الشر والزوال، ويبعث الحياة فى ديارها الصامتة، فتظهر أشجار الأودية العظيمة وجماعات النعام وقطعان البقر الوحش والظباء تروح وتغدو حانية على أولادها، إنه الماضى يعود حيا بقيامة جيل جديد، ويورق ويخضر، وتسرى فى عروقه مياه الحياة .

ومن قصائده التى تأمل فيها شاعرنا الكون والحياة واشتملت على كثير من معانيه الحكيمة تلك القصيدة التى رثى فيها أخاه أربد، وقد أبانت هذه القصيدة عن نظر ثاقب وبعيد فى طبيعة الكون والحياة، وهذه الحكم هى حكمة القلب الذى اشتد عليه الحزن، والنفس التى لم تجد ملجأ تتعزى فيه غير التأمل فى حقيقة الحياة، والغفل الذى لم يتجرد من العاطفة ولم يسلك مسلك الجمود النظرى فيما ينثر من آراء :

وقصة "أربد" أنه وفد على النبى - صلى الله عليه وسلم - مع عامر بن الطفيل قاصدين الغدر به - صلى الله عليه وسلم - فعصمه الله - عز وجل -

---

(١) مسلم: ساعة أسلمه صاحبه ليدق عليه الوشم، علوية امرأة ، رصنت: وشمت،الرواجب:قصب الكف .

منهما، وقد دعا النبى - صلى الله عليه وسلم - عليهما فمات عامر بالطاعون وهو ما زال على مشارف المدينة فى بيت امرأة من بنى سلول، أما "أربد" فإن حياته لم تطل فى بنى قومه إذ أصابته صاعة حيث خرج معه جمل له يتبعه فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما، وقد انزل الله تعالى فى عامر وأربد قوله الكريم "الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار، علم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال"[1]

ولعل ما أصاب عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس بعد انصرافهما عن النبى - صلى الله عليه وسلم - حمل لبيد على أن يفد على النبى - صلى الله عليه وسلم - فيسلم ويحفظ شيئا من القرآن الكريم، ثم يعود إلى بلاده ناسكا أو كالناسك، ثم يهاجر إلى الكوفة أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فيقيم

---

(١) سورة الرعد الآيات ٨-١٣

فيها منقطعا إلى الخير والبر والقرآن الكريم[١]، ومما جاء فى قصيدة لبيد راثيا أخاه قوله:[٢]

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وقد كنت فى أكناف جار مضنة ففارقنى جار بأربد نافع[٣]

فلبيد هنا ينظر إلى نفسه وإلى الناس، كلهم أبناء فناء صائرون إلى بلى، وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة، فهو يحملنا على أن ننظر معه إلى النجوم التى تطلع وتغيب، وإلى الجبال المستقرة على الأرض، ثم إلى الإنسان، وإذ هو يرى - ونرى معه - أن النجوم على اختلافها طلوعا وغروبا باقية، تذهب الأجيال والأجيال، وهى تشرق فى السماء وتغرب، لتشرق مرة أخرى وتغرب، وإذا الجبال كذلك ثابتة مستقرة، فتذهب الأجيال والأجيال، وهى فى مكانها لا تريم، وإذا الإنسان شئ يسير لا يستطيع أن يشرق ويغرب، كما تشرق النجوم وتغرب، ولا يستطيع أن يثبت ويستقر كما تثبت الجبال وتستقر، وإنما هو كالشهاب، يشرق ساطعا فيبهر الأبصار، ثم لا يلبث أن يستحيل رمادا تذروه الرياح، وإذن فما أشد غرور الإنسان وحبه للباطل،

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام - أبى محمد عبدالملك ابن هشام المعافرى - تقديم وتعليق طه عبدالرؤوف ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، ط ١٩٧٤م ، جـ٣ ، ص١٦٢-١٦٥ ، وحديث الأربعاء د/ طه حسين طـ١ ص٥٦ .

(٢) الديوان: ص ١٦٢ .

(٣) جار مضنة: جار يضن به .

وثقته بما لا ينبغي أن يثق بـه، وإطمئنانـه إلى مـالا ينبغـي أن يطمئـن إليـه، وتعلله بالسـخف مـن أحـاديث العـائفين، والقـائفين، والمستشـرين للحصـى، والمتحدثين عن الغيب، وإنما أمر هذا كله باطل، وأمـر الغيـب إلى مـن اسـتأثر بعلم الغيب وهو الله عز وجل .

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير مـا الله صـانع[1]

إن صيغة المفارقة، فقد "بلينا" وجربنا الموت فى الحيـاة ولم تبـل النجـوم والجبال، كنا أفعالا ماضية أو أخبارا وقصصا، وكانت النجوم والجبال حقـائق مشهودة فى كل أوان لا يثقلها شئ من الماضى والمستقبل، ثم يقول[2]

فـلا جـزع إن فـرق الدهـر بيننـا وكل فتى يوما به الدهر فـاجع[3]

فـلا أنـا يـأتينى طريـف بفرحـة ولا أنا مما أحدث الدهر جـازع[4]

ومـا النـاس إلا كالديـار وأهلـهـا بها يوم حلوهـا وغـدوا بلاقـع[5]

ومـا المـرء إلا كالشـهاب وضوئـه يحور رمادا بعد إذ هـو سـاطع[6]

وما البر إلا مضمـرات مـن التقـى ومـا المـال إلا معمـرات ودائـع

ومـا المـال والأهلـون إلا وديعـة ولابـد يومـا أن تـرد الودائـع

---

(١) الديوان: ص ١٦٣-١٦٤ .

(٢) الديوان: ص١٦٥ .

(٣) جزع: خوار عند المصيبة .

(٤) الطريف: ما جد من مال .

(٥) غدوا: أى غدا ، بلاقع: قفار .

(٦) العمر: الموضوع وديعة، أو الذى يبقى مفيدا ما بقى العمر .

ومن هؤلاء الذين ماتوا وأفناهم الدهر "أربد" الذى كان يضن به لبيد ويحبه، وهو مع ذلك لا ييأس ولا يجزع على فراق أخيه ما دامت هذه هى سنة الحياة، وقد ألف الإنسان - فيما يبدو - هذه المفارقة، ولم يمتنع الإنسان عن تجربة اللقاء والمشاركة، وهو أن شيئا اسمه الفراق آت لا محالة، وهو من أجل هذا يلقى الفراق باسما لاجازعا ثائرا صخبا، يلقاه لقاء من يحاول الاستعلاء عليه، وكان لبيد يعلم ما علمه الشعراء من قبل ومن بعد أن الفراق باب إلى الموت، الفراق والموت والزمان أصدقاء متحابون يعرف بعضهم بعضا ولا ينكر أحد منهم غيره، ولكن هؤلاء جميعا لا يستطيعون إيقاف المحبة والتفتيش عن الإنسان، هذا ما يوحى به شعر لبيد، ومن أجل ذلك كان حلوا لا يخلص للتشاؤم ولا يلغى حياة الإنسان ومن ثم نجده لا يجزع على فراق الأحبة ما دامت هذه هى سنة الحياة، لا يسلم من نوازل الدهر أحد، فقد كتب عل الناس الفناء، ووقفت لهم المصائب فى كل مرصد، فصار مستهينا بالدنيا، لا يفرح بشئ من متاعها، ولا يجزع إن ألمت به المصائب ونزلت عليه الكوارث، ويتأمل فى الموت وفناء الناس فيرى حالهم كهذه الديار التى تراها عامرة آهلة، وما هى إلا أيام حتى لا تجد منها غير رسوم مقفرة وآثار بالية تتلاعب بها الرياح وتسفى عليها التراب، والإنسان فى سرعة زواله وفنائه يشبه النار ما إن تراها ساطعة منيرة حتى تعود بعد لحظات رمادا كابيا لا خير فيه، وليس لفظ التقى فى بيت لبيد ذا معنى إسلامى، وإنما هو أقرب إلى

"المخاوف" التى كان يتجاهلها الإنسان حين فكر فى علوه وبقائه على الأرض وعمارته لها، وقد عاد الشاعر فأنكر السطوع حين أنكر المال والتملك، وسرعان ما أصبح هذا السطوع عارية أو وديعة وليس حقا مكتسبا ينم عن قدرة ذاتية واستعداد مستمر للدفاع عنها .

وما أيسر ما توحى العاريات الودائع بالزمان، فهو فيما يبدو يملك - كل شئ - ويعير الإنسان بين وقت وآخر ملكا أو حضارة أو قدرة على الإضاءة والثقة والتفتح، ولكنه يسترد ما أعاره، ولا يثق فى صنع الإنسان، ولا يرضى للإنسان ما يرضاه الإنسان لنفسه، بل الإنسان نفسه وديعه سيعود يوما إلى بارئه - وهو المالك الحقيقى لأمر الإنسان - ويمضى مع الناس حين يمضون زرافات إلى وادى الفناء .

يمضون أرسالا ونخلف بعدهم كما ضم أخرى التاليات المشايع فالناس فى مضيهم إلى وادى الفناء أشبه بإبل يزجرها راعيها، يسوق ما تفرق منها ليضمه إلى القطيع السائر، وهو هنا يفتن فى تعابيره ليؤكد حقيقة كبرى، هى أن الموت نصيب كل حى، ولا ينجو منه أحد .

ثم ينظر نظرة أخرى إلى الناس فى حياتهم، كيف يحيون وما نصيبهم من السعادة والشقاء، وما مصيرهم إذا امتد بهم الزمان وارخى لهم حبل العمر، فيقول:[1]

---

(١) الديوان: ص١٦٤ .

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبنى وآخر رافع

فمنهم سعيد أخذ لنصيبه ... ومنهم شقى بالمعيشة قانع

أليس ورائى إن تراخت منيتى ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التى مضت ... أدب كأنى كلما قمت واقع

فأصبحت مثل السيف غير جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع

فلا تبعدن إن المنية موعد ... عليك فدان للطلوع وطالع

فالناس عند لبيد رجلان لا ثالث لهما، رجل يعمل ولا يكسب شيئا وعمله خاسر كاسد، وآخر موفق فى عمله يكسب إذا عمل ويربح إذا تاجر، ومن الناس السعيد الذى أخذ نصيبه من رغد العيش ومتاع الدنيا، وآخر شقى كتب عليه البؤس فرضى ببؤسه واستكان لنصيبه .

ثم نجده بعد ذلك ينظر إلى الحياة نظرة كئيبة عابسة، فليس فيها وإن طالت إلا التعب والمشقة، والإنسان إذا امتد به العمر داهمته شيخوخة ثقيلة مملة، ثم يصور ثقل هذه الشيخوخة باحتياجه للعصا يستعين بها، وانظر كيف صور الشيخوخة والعجز وثقل السنين فى قوله:

أدب كأنى كلما قمت واقع[1]

وهو يرى أن المنية موعد للمرء يلقاها وتلقاه إن عاجلا أو آجلا، فالموت حتم لا مفر منه[2] .

---

(١) الديوان: ص١٦٤ .

(٢) راجع: لبيد بن ربيعة العامرى د/ يحيى الجبورى ، ط دار القلم - الكويت ط ثالثة ١٩٨٣م ص٣٣٤ - ٣٣٦ وصوت الشاعر القديم ، د/ مصطفى ناصف ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٢م ، ص٢٦-٢٨ .

وفى قصيدته التى رثى فيها النعمان بن المنذر يثير جوانب أخرى من موضوع الموت والحياة، فهو ينظر لحياة الإنسان على أنها سعى باطل-إلا التقوى وعمل المعاد - وفناء يعم الجميع، وإن حاجات المرء متصلة لا تنتهى ما عاش، ويجدر أن نشير إلى أنه رثاه بقصيدة فيها حكم وتوحيد لله تعالى، وليس بغريب أن ينظم لبيد بعض المعانى الدينية الموحدة، فقد كانت هذه الفترة فترة إرهاص وتطلع لظهور دين موحد، وقد شاعت فى هذا الحين المعانى الدينية التى كثر فيها التساؤل عن الحياة ومصيرها والناس وخالقهم، والبعث والحساب، كما تجد ذلك عند أمية بن أبى الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل وأتباعهما أو أصحابهما من الأحناف، وتجد هذه النغمة الروحية عند الشعراء المعاصرين للبيد أو الذين سبقوه بقليل كزهير بن أبى سلمى والأعشى، واستطاع لبيد أن يستخلص العبرة من هلاك النعمان، وكيف أن مجد الدنيا لا يدوم، وأن المنية لا تخطئ أحدا، ويصف ما كان للنعمان من مجد دنيوى، وما له من القوة والسلطان .

- هذا وكانت علاقة الشاعر بالنعمان المتوفى سنة ٦٠٢م قد بدأت عندما دخل لبيد عليه مع وفد بنى قومه مدافعا عنهم، مهاجما خاله "الربيع بن زياد" إذ كان يصد الملك عن الاحتفاء بهم ويكيد لهم - ومما جاء من رثائه له قوله:[1]

---

(١) الديوان: ص٢٠٣ وما بعدها .

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... أنحب فيقضى أم ضلال وباطل[1]

حبائله مبثوثة بسبيله ... ويفنى إذا ما اخطأته الحبائل[2]

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه ... قضى عملا والمرء ما عاش عامل

فقولا له: إن كان يقسم أمره ... ألما يعظك الدهر أمك هابل[3]

فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ... ولا أنت مما تحذر النفس وائل[4]

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب ... لعلك تهديك القرون الأوائل[5]

فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ... ودون معد فلتزعك العواذل[6]

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى: كل ذى لب إلى الله واسل[7]

ألا كل شئ ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

فالشاعر عنا يثير انتباه سامعيه - أو أنه جرد من نفسه شخصين يخاطبهما على عادة الكثير من الشعراء - أن يسألا هذا الإنسان الذى يحرص على الدنيا عما هو فيه: أهو نذر نذره على نفسه أم هو ضلال وباطل، ثم يوجه نصحه لهذا الإنسان ألا يقع فى ضلال، فالدنيا غير خالدة له، فالموت يترصد بالإنسان ينشر فى طريقه شراكه، ويبث حبائله، فلا حيلة له، وإذا

---

(١) النحب: النذر .

(٢) الحبائل: مصائد الموت .

(٣) يقسم: يقدر ويتدبر ، هابل: ثاكل ، وذلك دعاء عليه .

(٤) وائل: ناج

(٥) انتسب: اذكر نسبك من أباء وأجداد .

(٦) تزع: تكف ، العواذل هنا: حوادث الدهر .

(٧) الواسل: طالب الوسيلة .

أخطأه الموت - على حد قوله هو - فلا مهرب من الفناء، ثم يسوق حكما مبينا أن المرء ما دام يعيش فهو يؤمل، وإذا فعل شيئا ما ظن أنه قضى عملا ثم لابد للإنسان أن يتأمل في حياته ويتعظ من الدهر حيث لا يستطيع هذا الإنسان استعادة الماضي ولا النجاة مما هو مرسوم له، ثم إنه إذا كان لا يصدق فلينظر إلى ما حل بأجداده الأوائل، لعل القرون السابقة تهديه إلى الصواب، ويعلم أنه مهما طال عمره فلابد من رحيله حيث رحلوا، ولابد من موته كما ماتوا، فكل شئ إلى زوال سوى الله - عز وجل - والعاقل هو الذى يتوسل إلى الله تعالى بأعمال الخير - وهذا يتلاءم مع ما دعا إليه الإسلام بعد ذلك، لأن هذه القصيدة قيلت فى رثاء النعمان بن المنذر الذى مات عام ٦٠٢م كما سبق الإشارة إلى ذلك، وفى هذا الوقت كان عمر الرسول - صلى اللع عليه وسلم - لا يجاوز الواحد والثلاثين عاما، حيث ولد صلى الله عليه وسلم - عام ٥٧١م .

ثم يقول بعد ذلك: (١)

وكل أناس سوف تدخل بيهم ... دويهة تصفر منها الأنامل(٢)

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه ... إذا كشفت عند الإله المحاصل(٣)

وإذا كان نعيم الحياة الدنيا مصيره إلى الزوال، فإن الموت آت لا محالة وسوف يفرق بين المحبين، وإذا كان هناك موت فلابد من الحساب حيث كل

---

(١) الديوان: ص ٢٠٥ .

(٢) دويهة تصغير داهية ، وهى الأمر الجلل .

(٣) المحاصل: ما يحاسب عليه الإنسان من حسنات وسيئات .

إنسان يعلم ما قدمت يداه ويعرف حقيقة مسعاه .

وما يـزال شاعرنا يتحدث عن الموت والفراق وسعى الإنسان ومصير السابقين، حتى يعطف على النعمان، فيبكى العظمة والسلطان والقوة والإمـرة على القبائل، ويذكر أيامه الهانئة السعيدة، ثم يعرج على كتائب النعمان فيصف ضخامتها وكثرة جندها وما فيها من سلاح وعدد وحديد، فهى ضخمة وكثيرة، بحيث يضيق بهذه الكتائب وبالإبل وحمولها البطاح الواسعة والفيافى الشاسعة، وكأن لبيدا - رضى الله عنه - فى هذا يريد أن يظهر قوة النعمان وسعة سلطانه وعظيم ملكه، ليهول المصيبة التى حلت بهلاكه وضياع هذا الملك العظيم، فيبكيه بقوله:[1]

ليبك على النعمان شرب وقينة ... ومحتبطات كالسعالى أرامل

له الملك فى ضاحى معد وأسلمت ... إليه العباد كلها ما يحاول

إذا مشى أسآر الطيور صفت له ... مشعشعة مما تعتق بابل

ويمضى على هذا المنوال فى ذكر النعمان وعظمة فعاله وسعة سلطانه وكثرة جنده حتى ينتهى إلى ذكر مصير هذه السلطان العظيم وما آل إليه من خراب وفناء، بحيث عاد ذكرى من الذكريات وأثرا عفى عليها الزمن فتجده يقول:[2]

---

(١) ديوان لبيد : ص٢٠٥ .

(٢) الديوان : ص٢٠٩ ، ٢١٠ .

فبادوا فما أمسى مـن الأرض منـهم ... لعمـــرك إلا أن يخـــبر ســـائل

كأن لم يكـن بالشرع منـهم طلائع ... فلم ترع سحا فى الربيع القنـابل[1]

وبـالرس أو صـال كـأن زهاءهـا ... نوى الضمر لما زال عنها القبـائل[2]

ولاشك أن لبيدا ينظر إلى هذا المصير بحزن وأسـف ونفس متألمـة، وهـو حين يذكر النعمان ويأسف لضياع ملكه، إنما يذكر عهدا من شبابه هو، وأياما له زاهية فى مجالس هذا الملـك نـال فيـها المكانـة الرفيعـة والحظوة الكبيرة وأبلى فيها البلاء العظيم، ثم يختم قصيدته بحكمة ممزوجة بالتأمل .

وأمسى كـأحلام النيـام نعيمـهم ... وأى نعيـم خلتـه لا يزايـل

تـرد عليـهم ليلـة أهلكتـهم ... وعـام وعـام يتبـع العـام قـابل

وإن امرأ يرجـو الفـلاح وقـد رأى ... سـواما وحيـا بالأفاقـة جـاهل

فأى إنسان رأى عظمة النعمان وما يملك، ثم موته وموت من سبقوه وقـدر إمكان الخلود والبقاء فى هذه الحياة الدنيا فهو جاهل لا يعتبر .

ولهذه القصيدة تاريخ بالغ الأهمية فـى مكـة، أنشـدها لبيـد فـى مجلـس قريش أول الإسلام، وكان من بين الجالسين لسماع شعر لبيد عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - فلما بلغ لبيد إلى قوله:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

قال عثمان: صدقت ، ثم قال لبيد :

---

(١) الشرع: اسم موضع ، سحا: متتابعا ، القنابل: جماعة الخيل .

(٢) الرس: واد فى نجد ، الذوى: النعاج الهزيلة ، الضمد: اسم جبل .

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان - رضى الله عنه - كذبت، فلم يدر القوم ما عنى فأشار بعضهم على لبيد أن يعيد فأعاد، فصدقه فى صدر البيت، وكذبه فى عجزه، وقد فسر عثمان ما أراد بتكذيبه أن "نعيم الجنة لا يزول".

فعاتب لبيد قريشا بقوله: "يا معشر قريش ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم" فقال قائل من القوم: إن هذا سفيه فى سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلاتجدن فى نفسك من قوله، وتراد عثمان وبعض الحاضرين القول، حتى لطمه أحدهم[1] لطمة خضرت عينه[2].

وقال رضى الله عنه يذكر من فقد من قومه ومن سادات العرب ويتأمل فى سطوة الموت وضعف الإنسان إزاءه واصلا من وراء ذلك إلى كثير من الحكم :[3]

أعاذل قومى فاعذلى الآن أو ذرى ... فلست وإن اقصرت عنى بمقصد

أعاذل لا والله ما من سلامة ... ولو أشفقت نفس الشحيح المثمر

أفى العرض بالمال التلاد وأشترى ... به الحمد إن الطالب الحمد مشترى

وكم مشتر من ماله حسن صيته ... لأيامه فى كل مبدى ومحضر

أباهى به الأكفاء فى كل موطن ... وأقضى فروض الصالحين وأقترى[4]

فإما ترينى اليوم عندك سالما ... فلست بأحيا من كلاب وجعفر

---

(١) هو أبى بن خلف أو ابنه .

(٢) خضرت عينه : جعلها خضراء متورمة ، انظر: السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٣) الديوان : ص١٤٥ - ١٥١ .

(٤) أقترى : أتتبع فعال الصالحين

إلى أن يقول :

وإنا وإخوانا لنا قد تتابعوا كالمعتدى والرائح المتهجر

هل النفس إلا متعة مستعارة تعار فتأتى ربها فرط أشهر

فنجده هنا يكثر من التذكير والتنبيه على أهم قضية لدى الناس جميعا وهى قضية نهاية كل حى وأن لا سلامة للإنسان من قدر الموت لذلك عليه أن يتزود بالهدى والصلاح والعمل الطيب، وأن يبذل ماله فى سبيل الحمد والذكر الحسن، وإذا رأى الإنسان نفسه اليوم سالما معافا، فإن أمره لا يدوم إلى الأبد، فكل الناس سائرون إلى مصير واحد، وما النفس إلا متعة تعار للإنسان وتستعاد منه[1] .

ولشاعرنا لبيد قصيدة مفعمة بالحكمة قالها يذكر قومه الذين خرجوا من الجزيرة إلى الشام والعراق للجهاد فى سبيل الله عز وجل وغادروه عاجزا مع الشيوخ والنساء والصبيان يتأمل فى ديارهم ويحن إليهم ويتحسر على فراقهم، فيقول - رضى الله عنه[2] .

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله ترجعون وعند الله ورد الأمور والإصدار

كل شئ أحصى كتابا وعلما ولديه تجلت الأسرار[3]

---

(١) انظر: لبيد بن ربيعة العامرى - حياته وشعره أ/حسن جعفر نور الدين ، ص٤١ .

(٢) الديوان : ص١٥٣ - ١٥٥ .

(٣) تجلت: انكشفت .

يوم لا يدخل المدارس فى الرحـــ ـــــة إلا بــــراءة واعتـــذار
وحســان أعدهــــن لاشـــها د وغفـر الـذى هـو الغفـار[1]
وقّعْـام أكـرم بـــه مـــن مقـام وهــواد وســـنة ومشـــار[2]
إن يكـن فـى الحيـاة خـير فقـد أنظـرت لـو كـان ينفـع الإنظـار
عشـت دهـرا ولا يـدوم علــى الأ يـــام إلا يرمـــرم وتعـــار

فلبيد فى هذه القصيدة يستوحى القرآن الكريم فى ذكر الصالحين والأبرار فهم الأمناء الذين يحفظون التقى ويتبعون المنـهاج الصـالح القويـم ويعلمـون أن الناس مرجعهم إلى الله تعـالى الـذى أحصـى كـل شئ علمـا، قـال تعـالى: "وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون"[3] وقال عز وجل: "وكل شئ أحصيناه كتابا"[4] وقال تعالى: "وأحاط بما لديـهم وأحصـى كـل شئ عـددا"[5] فالإنسان تحصى عليه أعماله ويجازى عليها يوم القيامة، ولا يدخل الجنة إلا إذا كان تائبا متبرئا من الذنوب والآثام معتذرا عـن انحرافـه، وإذا كـان الأمـر كذلك فعلى كل إنسان أن يفكر فى مصيره لأنـــه مـهما طـال بـه العمـر فسـوف يفنـى ولا تبقى إلا الأعمال الصالحات التى هـدى الله إليهـا الإنسـان، والـذكـر

---

(١) حسنات الأعمال .

(٢) هواد : الأمور التى تهدى .

(٣) سورة الانفطار الأيات: ١٠-١٢ .

(٤) سورة النبأ، الآية: ٢٩ .

(٥) سورة الجن من الآية ٢٨ .

الحسن "فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه"[١] .

كذلك فى إحدى قصائده التأملية يذكر طول عمره وسأمه من الحياة مستخلصا مواعظ وحكما خالدة معلنا عن إيمانه بوحدانية الله عز وجل ويتحدث فيها عن مآثره ومقاماته، ويوازن بين ما كان عليه وما صار إليه من ضعف وشيخوخة، يقول:[٢]

قضى الأمور وأنجز الموعود ... والله ربى ماجد محمود

وله الفواضل والنوافل والعلا ... وله أثيث الخير والمعدود[٣]

ولقد بلت إرم وعاد كيده ... ولقد بلته بعد ذلك ثمود

خلوا ثيابهم على عوراتهم ... فهم بأفنية البيوت همود[٤]

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟

وغنيت سبتا قبل مجزى داحس ... لو كان للنفس اللجوج خلود[٥]

إلى أن يقول:

أكرمت عرضى أن ينال بنجوة ... إن البرئ من الهنات سعيد

---

(١) سورة النساء من الآية: ١٧٥ .

(٢) الديوان: ص١٢٦ .

(٣) الأثيث: الكثير الملتف .

(٤) خلوا: شدوها بالأخلة (جمع خلال) حين أيقنوا بالموت ، همود: موتى .

(٥) غنيت: عشت ، داحس والغبراء : فرسان مشهوران وقد اندلعت الحرب بين عبس وذبيان بسببهما، السبت: الدهر .

فلبيد يركز على إيمانه بالله تعالى لأنه عز وجل هو الذى يستحق الحمد فى جميع الأحوال لأنه المالك لكل شئ وبيده الفضل والخير والعطاء والمجد يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ويمضى واعظا من حوله بما أهلك من الأمم الخالية، مخوفا من الموت ويوم الحساب ويأتى بدليل على حقيقة الموت والفناء فيذكر "إرم" و"عاد" و "ثمود" ، ولعله استمد ذلك من قوله تعالى :

"ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد"[1] وقد كان أمر عاد وثمود مشهورا عند العرب، لأن ديارهم متصلة بديار العرب وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون وإرم، وإرم أمة من الأمم، وقيل هى قبيلة من عاد، وقيل: هما عادان، فالأولى هى إرم، والثانية ثمود وهم قوم صالح[2]، وهكذا يذكر القضية ويأتى لها بالدليل من الواقع والتاريخ، ليضع السامع والقارئ أمام قضية مسلمة لا ينكرها العقل البشرى ثم يسوق ألوانا من الحكم التى توقف الإنسان على ما تحدثه الأيام، وتصرف الدهر وتقلباته، حيث عاش زمنا طويلا خبر الحياة وأحس بكل ألوانها، ونتيجة لذلك أعلن سأمه من طول الحياة، حيث عاش دهرا طويلا قبل قيام حرب داحس والغبراء التى اندلعت بين عبس

---

(١) سورة الفجر ، الآيات : ٦ - ٩ .

(٢) انظر: فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف محمد بن على بن محمد الشوكانى، نشر المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة ، جـ٥ ص٤٣٢ - ٤٣٣ .

وذبيان، كما شهد المنتديات التى يحضرها ملوك الحيرة مما يدل على مكانته بين رجال زمانه .

وفى إحدى قصائده نجده يتأمل فى هذا الكون الفسيح واصلا من ورائه إلى الإيمان العميق بالله تعالى، ومن وراء هذا التأمل منحنا الكثير من الحكم النافعة، فجاء تأمله هنا ممزوجا بالحكمة، يقول:[١]

لله نافلة الأجل الأفضل ... وله العلا وأثيث كل مؤثل[٢]

لا يستطيع الناس محو كتابه ... أنى وليس قضاؤه بمبدل

تسوى فأغلق دون غرة عرشه ... سبعا طباقا فوق فوع المنقل[٣]

والأرض تحتهم مهادا راسيا ... ثبتت خوالقها بصم الجندل[٤]

والماء والنيران من آياته ... فيهن موعظة لمن يجهل

بل كل سعيك باطل إلا التقى ... فإذا انقضى شئ كأن لم يفعل

لو كان شئ خالدا لتواءلت ... عصماء مؤلفة ضواحى مأسل[٥]

بظلوفها ورق البشام ودونها ... صعب تزل سراته بالأجدل[٦]

---

(١) الديوان: ص ١٩٩ .

(٢) الأثيث: الكثير ، المؤثل: الراسخ والأصيل .

(٣) المنقل: ظهر الجبل .

(٤) الخوالق: الجبال .

(٥) تواءلت: نجت ، عصماء: أنثى الوعل، مأسل: جبل .

(٦) البشام: شجر طيب الرائحة ، الأجدل: الصقر .

أو ذو زوائد لا يطاف بأرضه ... يغشى المهجهج كالذنوب المرسل[1]

فى نابه عوج يجاوز شدقه ... ويخالف الأعلى وراء الأسفل

فأصابه ريب الزمان فأصبحت ... أنيابه مثل الزجاج النصل

والقصيدة التى معنا كلها تنبض بالمعانى الحكمية، إلا أن ما جاء من أبيات منها كان أعم وأشمل، فالشاعر يحث على الإيمان بالله عز وجل الذى له كل شئ لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه فأمره نافذ وتدبيره محكم فى كتابه المحفوظ وآياته الواضحات لذوى الألباب الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض "إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب"[2] "وفى الأرض آيات للموقنين"[3] "والأض فرشناها فنعم الماهدون"[4] ففى الأرض دلائل واضحة وعلامات ظاهرة من الجبال والبر والبحر والأشجار والثمار، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذبة لما جاءت به رسل الله ودعتهم إليه، ومن الآيات التى أشار إليها لبيد الماء والنار ففيهما موعظة لمن يتأمل فى صنع الله عز وجل، ولعله استمد ذلك كله من كتاب الله عز وجل، يقول سبحانه وتعالى: "أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون، أفرأيتم النار التى

---

(١) ذو زوائد: الذى يتزيد فى الزئير ، المهجهج: الذى يصبح به

(٢) سورة آل عمران الأية ١٩٠ .

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٠ .

(٤) سورة الذاريات ، الآية ٤٨

تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين"[1] فنار الدنيا تذكرة لنار الآخرة، فهى موعظة يتعظ بها المؤمن، فآيات الله كثيرة وعلى الإنسان أن يعقل ويتدبر .

ثم أشار إلى أن سعى الإنسان فى هذه الحياة يعد سرابا إلا الإيمان والتقوى التى هى خير زاد ليوم المعاد، فالدنيا فانية ولا يخلد فيها شئ، وقد دلل على ذلك ذاكرا أنثى الوعل التى تألف الجبال بعيدة عن الناس ولا يصل إليها أحد حتى الصقر، وكذلك لبقى الأسد صاحب الصوت المرعب الذى زوده الله تعالى بفكين مخالفين بحيث إذا انطبق فكه الأعلى على الأسفل تخالفت أنيابه فلم تستطع الفريسة أن تتخلص من هذا الإطباق، ولكن عندما تتقدم به السن تتناثر أنيابه فيصبح عاجزا عن اقتناص الفريسة، وليس بعد ذلك إلا الموت والفناء، وهذه سنة الله فى خلقه .

وفى سياق الحكمة والتأمل يذكر الأمم البائدة والملوك الأقدمين معتبرا بمصير الجبابرة الهالكين، أو الحكماء الماضين علما بأخبارهم إلماما يدعو إلى الإعجاب، فهو يعد من أوسع الشعراء أفقا فى معرفة هذه الأمم، يقول:[2]

ولقد رأى صبح سواد خليله ... من بعيد قائم سيفه والمحمل

صبحن صبحا حين حق حذاره ... فأصاب صبحا قائف لم يغفل

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات : ٦٨ - ٧٣ .

(٢) الديوان: ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

فالتف صفقهما وصبح تحته ... بين التراب وبين حنو الكلكل

ولقد جرى لبد فأدرك جريه ... ريب الزمان وكان غير مثقل

لما رأى لبد النسور تطايرت ... رفع القوادم كالفقير الأعزل[1]

من تحته لقمان يرجو نهضه ... ولقد رأى لقمان أن لا يأتلى

غلب الليالى خلف آل محرق ... وكما فعلن بتبع وبهرقل

وغلبن أبرهة الذى ألقينه ... قد كان خلد فوق غرفة موكل[2]

والحارث الحراب خلى عاقلا ... دارا أقام بها ولم يتنقل

تجرى خزائنه على من نابه ... مجرى الفرات على فراض الجدول

حتى تحمل أهله وقطينه ... وأقام سيدهم ولم يتحمل

والشاعرون النـاطقون أراهم ... سلكوا سبيل مرقش ومهلهل

وإذا كان الشعراء قد أشاروا إلى الأمم الماضية والملوك فإن لبيدا كان يلح على هذه الإشارات ويكثر من ذكرها وتكرارها، بل ويفصل فيها، فهو فى هذا يعين دارس التاريخ والأخبار لكثرة المعلومات التى ترد فى شعره، فهو - كما سبق - يبين ما أصاب الأمم البائدة وملوكها من مثل إرم وعاد وملوك اليمن التبابعة وذى القرنين والنعمان، وأيضا يذكر الحكماء السابقين فهو يذكر لقمان وعمره وقصته مع النسر "لبد" فقد قالوا فى قصصهم أن لقمان بن عاد خير فاختار عمر سبعة أنسر، فأتى سؤله، فكان يأخذ فرخ النسر فيجعله فى

---

(١) الفقير: الذى كسرت فقرات ظهره ، الأعزل: المائل الذنب .

(٢) خلد: سكن ، موكل: اسم بيت كانت الملوك تنزله .

خربة من الجبل الذى هو فى أصله، فإذا استوفى النسر عمره أخذ فرخا آخر فوضعه مكان الأول، وهكذا إلى آخر النسور وآخرها وأطولها عمرا هو "لبد" الذى ضرب به المثل فى طول العمر وفى الهرم والفناء، فقيل: "أتى أبد على لبد" .

وأمر لبد ولقمان معروف عند العرب لم ينفرد بذكره لبيد فقد ذكره النابغة الذبيانى فقال:

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد[1]

فالنابغة يقول أمست الدار خالية من أهلها لما احتملوا عنها إلى مياههم، ومن ثم أفسد عليها الدهر الذى أفسد على لبد وهرمه وأفناه، ولبد هو النسر السابع للقمان بن عاد وكان قد عمر أربعمائة عام .

ولم يكتف لبيد بذكر هؤلاء بل ذكر ملوكا وعظماء آخرين، مثل صبح العادى ملك الحبشة، وكيف تمت نهايته ولقى مصرعه، وآل محرق، وتبع، وهرقل وأبرهة، والحارث ابن حجر الكندى، وغيرهم، ويروى قصص هؤلاء وغيرهم ليتخذ الدليل بعد ذلك على عجز الإنسان وضعفه وخضوعه لسنة الحياة، التى تقضى بهلاك كل حى وفناء كل قبيل[2] .

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الثانية، طبع دار المعارف ١٩٨٥م ص١٦.

(٢) راجع: لبيد بن ربيعة العامرى، د/ يحيى الجبورى ص١٦٣، ١٦٤ ، ٣٤١، لبيد بن ربيعة العامرى - حياته وشعره - أ/ حسن جعفر نور الدين ، ص٤٣ ، ٤٤ .

وبالإضافة إلى ما سبق نجده يتناول حادثة عام الفيل حين غزا أبرهة الحبشى مكة وأراد هدم الكعبة فأهلك الله جنده وفيله بأن أرسل عليهم تبارك وتعالى الطير الأبابيل وكان ذلك ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه ولد فى ذلك العام على ما يرى كثير من المؤرخين، فتناول لبيد هذه الحادثة وما أصاب أبرهة من هزيمة منكرة، وما كان من دعاء عبدالمطلب - جد النبى - صلى الله عليه وسلم - ربه لحماية البيت الحرام حفظه الله عز وجل ، يقول - رضى الله عنه[1] .

والفيل يوم عرنات كعكعا ... إذ أزمع العجم به ما أزمعا[2]

نادى منادٍ ربه فأسمعا ... فذب عن بلاده وورعا[3]

وحابس الحاسر و المقنعا ... وأفلت الجيش بخزى موجعا

تمج أخراهم دماء دفعا

ومن قصائده التى تنبض بالمعانى الحكمية تلك التى يتأمل فيها الوجود، أيضا فنجده يقول :

إن تقوى ربنا خير نفل ... وبإذن الله ريثى وعجل

أحمد الله فلا ند له ... بيديه الخير ما شاء فعل

---

(١) الديوان : ص١٦٩ - ١٧٠

(٢) عرنات: موضع دون عرفات ، كعكع: حبس وضع .

(٣) المنادى . هو عبدالمطلب بن هاشم جد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ورع : كف ورد .

من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء فعل[1]

إلى أن يقول:

فإذا جوزيت قرضا فاجزه ... إنما يجزى الفتى ليس الجمل[2]

أعمل العيس على علاتها ... إنما ينجح أصحاب العمل

وإذا رمت رحيلا فارتحل ... واعص ما يأمر توصيم الكسل[3]

واكذب النفس إذا حدثتها ... إن صدق النفس يزرى بالأمل

غير أن لا تكذبنها فى التقى ... واخزها بالبر لله الأجل[4]

واضبط الليل إذا طال السرى ... وتدجى بعد فور واعتدل

يرهب العاجز من لجته ... فيدعى فى مبيت ومحل

فشاعرنا يشير إلى أن تقوى الله عز وجل خير ما يتزود به الإنسان ليوم المعاد ولعله اقتبس الشطر من البيت الأول من قوله تعالى: "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[5] ونراه يفوض أمره كله لله تعالى وهذا دليل الإيمان الحقيقى بالله تعالى وما أمر به، ثم يحمد الله عز وجل الذى لا إله إلا هو لا شريك له بيده الخير وله ملكوت كل شئ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولبيد هنا استفاد من

---

(١) الديوان: ص ٢١٢ .

(٢) الديوان : ص٢١٥ البريث: الإبطاء ، الفتى: السيد الكريم، الجمل: الجاهل .

(٣) التوصيم: التكسير والتفتير .

(٤) اخزها: أقهرها .

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٩٧ .

قول الله تعالى: "فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون[1] .

وفى البيت الثالث علم أن الهادى إلى الخير هو الله تعالى فمن هداه استقرت حياته ونعم باله، ومن أضله شقى وضل وغوى، وهذا من قول الله تعالى: "فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء"[2] .

ثم أبان عن أهمية البر والإحسان، وضرورة العمل من أجل النجح والفلاح فى الحياة، ويدعو إلى التنقل والرحيل فى سبيل الحياة والتطور، ويهاجم القعود والكسل ويحث على تجنبه، وينصح الإنسان بأن يحدث نفسه دائما بالظفر وبلوغ الأمل، ومن ثم فعليه أن يشحذ عزيمته وهمته ويكسر شهوات النفس ونوازعها ثم نجده يحترس من أن كذب النفس فى الحد من مطامعها وأمانيها لا ينصرف إلى أن يكذب النفس فى إيمانها وتقاها، ثم يستمر فى نوجهاته حاثا الإنسان أن ينتفع بالوقت، فالوقت كالسيف إن لم يقطعه الإنسان قطعه وعليه أن يخوض غمار الليالى ولا يعجز ولا يخاف لأن العاجز الذى يرهب الكد والعمل وخوض متاعب الحياة ومعاركها فيظل باقيا فى محله لا يتخطاه .

وبعد ... فإن القارئ لهذا اللون من شعر لبيد - رضى الله عنه - يلحظ أن لبيدا اتخذ فى شعره الحكمى والتأملى عدة اتجاهات :

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٢

(٢) سورة فاطر من الآية: ٨

١- الحديث عن الموت والفناء وتربص المنايا بالناس، وأنهم سائرون جماعات إلى الفناء يتتابعون، وكل قوم مهما كثروا فإن الموت يتخطفهم وسيغدون عما قريب قلة مبعثرة - وقد سبق ذكر نماذج لذلك فى رثائه لأخيه أربد والنعمان بن المنذر - ويتمثل مجمل رأيه فى الموت ومصائب الناس فى قوله:[١]

كل بنى حرة مصيرهم قل وإن أكثرت من العدد[٢]

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يوما يصيروا للهلك والنكد[٣]

٢- النظرة الوجلى إلى الموت، وهذه النظرة جعلته يذكر الموت ويضيق بغدره وبالزمان وأحداثه، والأيام وما تخبئه للناس من بؤس وشر، فهو ساخط على الزمان منكر لشره، سئ الظن به، يذمه على هذا النحو :

لحا الله هذا الدهر إنى رأيته بصيرا بما ساء ابن آدم مولعا[٤]

٣- ومما يتصل بالموت والدهر فى أفاعيل الزمان وما أصاب الماضين من هلاك وبلاء فتجده يهتم بذكر الملوك والعظماء والفرسان والأمم التى أبادها الدهر وأذلها الموت وعفى على آثارها الزمان، يتخذ من أولئك جميعا العبرة والموعظة والعزاء، من ذلك قوله:[٥]

---

(١) الديوان : ص ١٢٩ .

(٢) قل : قليل .

(٣) يهبطوا: يموتوا ، يغبطوا: يموتوا من غير مرض ، أمرو : كثروا .

(٤) الديوان: ص ١٦٦ .

(٥) الديوان ص ١٤٩ - ١٥١ .

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط ... بمستمع دون السماء ومنظر [1]
وبالحارث الحراب فجعن قومه ... ولو هاجمهم جاء وينصر مؤزر [2]
وأهلكن يوما رب كنده وابنه ... ورب معد بين خبث وعرعر [3]
وأعوصن بالدومي من رأس حصنه ... وأنزلن بالأسباب رب المشقر [4]
وأخلفن قسا ليتني ولو انني ... وايعا على لقمان حكم التدبر [5]
فإن تسألينا فيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسحر [6]

إلى أن يقول:

نحل بلادا كلها حل قبلنا ... ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير
وإنا وإخواننا لنا قد تتابعوا ... لكالمغتدى والرائح المتهجر
هل النفس إلا متعة مستعارة ... تعار فتأتي ربها فرط أشهر [7]

٤- الاتجاه الديني الذى يتمثل في توحيد الله عز وجل وتسبيحه سبحانه وتعالى وبيان قدرته وفضله ومرجع النفوس إليه عز وجل، من ذلك قوله: [8]

---

(١) بنات الدهر: الأيام والمصائب ، ارباب ناعط: قوم من همدان وناعط قصر لهم .

(٢) الحارث الحراب: أحد ملوك غسان، وقيل: هو ابن عمرو ابن حجر الكندى، مؤزر: شديد .

(٣) رب كندة: ملكهم وهو حجر أبو امرئ القيس، رب معد: ملكهم حذيفة بن بدر، المشقر: حصن بالبحرين يقال كان به رجل من الفرس، الخيث: المستوى من الأرض، عرعر: اسم شجر أو اسم بلد .

(٤) أعوصن: انقلبن، الدومي: ملك دومة الجندل

(٥) حكم التدبر: ما يطلبه ويتمناه

(٦) عصافير: صغار ضعاف، تسحر: معلل بالطعام والشراب .

(٧) فرط أشهر : بعد اشهر .

(٨) الديوار ص١٥٣ .

إنمـا يحفـظ التقـى الأبـرار وإلى الله يسـتقر القـرار
وإلى الله ترجعـون وعنـد الله ورد الأمـور والإصـرار
كـل شئ أحصـى كتابـا وعلمـا ولديـه تجلـت الأسـرار

وهذه المعانى استمدها من الإسلام بعد إيمانه بالله عز وجل .

٥ - وهناك اتجاه عبر فيه عما يحسه من سأم نظرا لطول وامتداد أيامـه - وقد شاع ذلك فى حكمه وتأملاته - فما دام الموت يترصد النـاس والمنايـا تتخطفـهم فإنـه قـد مـل الحيـاة وسئم البقـاء فيـها، لأن العمـر الطويـل ليـس وراءه إلا الشيخوخة الفانية والجسم السقيم والضعف والعجز يقول:[1]

أليس ورائـى إن تراخـت منيتـى لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وقد عاش لبيـد - رضـى الله عنـه - دهـرا طويـلا حتـى سئم مـن الحيـاة وطولها، ومن ثم فهو لا يحفل متى هلك وحسبه من أيامه ما مضى، فـإن طـول العمر يورث السآمة والملل، يقول:[2]

فمتـى أهلـك فـلا أحفلـه بجلى الآن مـن العيـش يجلـى[3]
مـن حيـاة قـد مللنـا طولهـا وجديـر طـول عيـش أن يمـل

ولماذا هذا العمر الطويل طالما أن النهاية واحدة هى الموت والفناء إن عاجلا أو آجلا، يقول:[4]

---

(١) الديوان : ص ١٦٤ .

(٢) الديوان: ص ٢٢٢ .

(٣) بجلى: حسبى .

(٤) الديوان : ص ١٦٤ .

فـلا تبعـدن إن المنيـــة موعـد   عليـك فـدان للطلـوع وطـالع(١)

ونستغفر الله تعالى من السآمة فكان ينبغى على الشـاعر وهـو الـذى شـغل بحفظ القرآن الكريم ألا يضجر من طول عمر ولا يسأم، فخير المؤمنين من طـال عمـره وحسن عمله، وأيضا فإن لكل أجل كتاب "ومـا كـان لنفـس أن تمـوت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا.."(٢) والله نسأل أن يتغمده برحمته، آمين .

والاتجاهات السابقة هـى الغالبـة علـى شـعره الحكمـى والتـأملى تراهـا واضحة جلية فى قصائده، يؤكدها ويكررها، ويلاحـظ علىهـذه السـمات أنـهـا جاءت مترابطة متلازمة يكمل بعضها بعضـا، فـالحديث عـن المـوت يسـتدعى ذكر الزمان وما يفعله من أفاعيل، وهـذا بـالطبع يجـره إلى ذكـر الذيـن سـلفوا وداهمتهم المنايا، فما نجا منهم أحد مهما علا قدره أو كـثر أعوانـه وجنـوده، وعليه فلا أحد يطمع فى النجاة ولا يفـرح بـالعمر الطويـل، فـإن وراءه الهـرم والضعف والملل، وإذا كان الأمر كذلك فعلى العاقل أن يـتزود بـالتقوى والعمـل الصالح، حيث يقول:(٣)

رأيت التقى والحمد خير تجـارة   ربـاحـا إذا المـرء أصبـح ثـاقلا

هذا ما كان من أفكار شاعرنا فـى القضايـا الكـبرى، أمـا آراؤه فـى سـلوك الناس ونظراته فى الأخلاق، وعلاقاته بالآخرين، فهى متأنية عن تلك الأفكار

---

(١) طالع : متخلف يسيرا عن الدانى للطلوع

(٢) سورة آل عمران- من الآية ١٤٥

(٣) الديوان ص ١٩٢ ، ثاقلا : ميتا .

العامة التى سبق ذكرها، فهو يرى أن على الإنسان أن يكون أمينا وفيا يقابل الإحسان بمثله، فاللبيب النبيه من يكافئ الناس ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به .

فإذا جوزيت قرضا فاجزه إنما يجزى الفتى ليس الجمل[1]

وعلى المرء أن يكون ذا همة وعزيمة، فإذا عزم على أمر فليمض فيه ينفذ قراره من غير تراخ أو كسل .

وإذا رمت رحيلا فارتحل وأعص ما يأمر توصيم الكسل[2]

وإذا كان ذا إرادة قوية لا يطاوع شهوات نفسه فتقعد به دون آماله:

واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل[3]

وعليه أن يقنع بما قسم الله ويرضى بذلك ويدعو الناس إلى الرضاء .

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[4]

فالسعيد الحقيقى من كان مبرأ من العيوب، بعيدا عن الدنايا والسقطات، يقول لبيد:[5]

أكرمت عرضى أن ينال بنجوة إن البرئ من الهنات سعيد

---

(١) الديوان: ٢١٤ ، الجمل: الجاهل .

(٢) الديوان : ص ٢١٤ .

(٣) الديوان: ص ٢١٤ .

(٤) الديوان: ص ٢٤٩ ، الخلائق: الطبائع .

(٥) الديوان: ص ١٢٨

ولبيد يعامل الناس بما هم أهل له، فيصل من كان أهلا للوصول، ويكرم من كان أهلا للكرم، وإذا عاشر الناس فلا يثقل عليهم، فإذا أحس نبوة أو وحشة فسرعان ما يبعد عنهم، وإذا كان صاحبه ضنينا بخيلا فلا يجازيه ببخله، بل يبذل له من ماله ويغدق عليه من فضله، يقول:[1]

أجازى وأعطى ذا الدلالة بحكمه ... إذا كان أهلا للكرامة واصلا

وإن آته اصرف إذا خفت نبوة ... وأحبس قلوص الشح إن كان باخلا[2]

وبعد فحكمة لبيد وتأملاته يدوران فى مجال واسع وعلى مستوى إنسانى عام، وهذا ما يكسب أفكاره البقاء والخلود، وهذه إحدى صفات الأدب العالى الجيد . فهو بحق شاعر الحكمة والتأمل، ولعل عمره الطويل وتجاربه فى الحياة زوداه بتجارب من الحياة والوجود انعكست على شعره .

---

(١) الديوان: ص ١٩٣

(٢) نبوة : جفوة

السمات الفنية لشعره الحكمى والتأملى

١- الألفاظ والأساليب :

عندما ننظر إلى أسلوب لبيد رضى الله عنه نجده أسلوبا قويا جزل العبارة، تام الصياغة، يمتاز بالمتانة وأسر اللفظ، ويبدو شعره للوهلة الأولى صعبا مغرقا فى البداوة، خاصة فى الأغراض التى يتناول وصف الصحراء أو حيوانها، وليس مرجع ذلك إلى المعانى والأخيلة بل مرجعه إلى اللغة التى يكثر فيها الغريب، وليس ذلك بعيب فى عصره الجاهلى لأن ذلك مذهب العرب القدامى لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة، ومن ثم فإن أسلوب لبيد فى تلك المدة كان يخضع لأثرين ظاهرين: أولهما البيئة وثانيهما الموضوع الذى يعالجه، فمثلا فى مطلع معلقته التى يقول فى مطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عدى رسمها ... خلقا كما ضمن الوحى سلامها

ومن تجرم بعد عهد أنيسها ... حجج خلون حلالها وحرامها

رزقت مرابيع النجوم وصابها ... ودق الرواعد جودها فرهامها

من كل سارية وغاد مرجن ... وعشية متجاوب إرزامها

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت ... بالجلهتين ظباؤها ونعامها[1]

---

(١) الديوان: ص٢٣٦ وقد سبق تفسير كلماتها عند الحديث عما فيها من تأملات .

وقوله يصف حمار الوحش وأتانه :

كأن قتودى فوق جأب مطرد ... يفز نحوصا بالبراعيم حائلا[1]

رعاها مصاب المزن حتى تصيفا ... نعاف القنان ساكنا فالأجاولا[2]

فكان له برد السماك وغيمه ... خليطا غدا صبح الحرام مزايلا[3]

فمنشأ الغرابة هنا ليس فى المعانى فى هذه الأماكن الأعرابية وفى صفات الحمار والأتان، فهو عندما يتناول مثل هذه الموضوعات يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه حتى ليحس قارئه شيئا من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيها[4] .

وهذا ما جعل بعض النقاد القدماء يصفونه بالغرابة المفرطة وأن ألفاظه متناهية فى الإغراب، ومن ثم فقد وصف أبو عمرو ابن العلاء شعره بقوله: ".. إنه رحى بزر" يريد أنه خشن فى السمع، وقال الأصمعى: "شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانى - أى محكم الصنعة - وليس له حلاوة"[5] أما حين يتناول الأغراض الذاتية التى هى تعبير عن خوالج النفس أو وصف لمعالم الحضارة تجد شعره عذبا رقيقا سلسا خاليا من الغريب مبرأ من الخشونة

---

(١) مطرد: متتابع السير ، يفز نحوص: يثير أتنا سمينة .

(٢) نعاف: سفح جبل، القنان: جبل لبنى أسد الأجاول: موضع .

(٣) مزايلا: مفارقا ، والأبيات بالديوان ص ١٨٦ .

(٤) تاريخ الأدب العربى- العصر الإسلامى - د/ شوقى ضيف ، طبع: دار المعارف بمصر - الطبعة السابعة ص ٩٢ .

(٥) الموشح للمرزبانى ، طبع دار نهضة مصر ١٩٦٥م ص ١٠٠ .

والوعورة، وذلك حين يتغزل أو يرثى أو يتفكر فى الحياة فيذكر الماضين، ويسوق الحكم - وهذا يعد سهلا وعذبا بالنسبة - لأبناء جيله وعصره - لأنه بهذا اللون من الشعر يريد أن يؤثر فى سامعيه ويؤسرهم بمضمون ما قدم من حكمة وما شاع من جرس موسيقى مؤتلف مع النغم الوجدانى فى داخله، ونلحظ ذلك فيما أورده من حكم وتأمل بعد أن شرح الله صدره للإسلام .

لقد اتجه لبيد - منذ أسلم - بروحه وقلبه إلى الله تعالى ، وبدأ يتفهم الدين الإسلامى، وانصرف إلى القرآن الكريم يقرأه ويحفظه، وقد ظهرت آثار هذا التدين فى الشعر الذى نظمه فى الإسلام تسبيحا لله، وتمجيدا لذكره، وحمدا لنعمته[1]، ومن ثم تأثر بألفاظ القرآن الكريم وأفكاره ومعانيه، حتى إنك تجد بعض أبياته ما يكاد يكون نظما لبعض آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله :

لله نافلة الأجل الأفضل ... وله العلا وأثيث كل مؤثل

لا يستطيع الناس محو كتابه ... أنى وليس قضاؤه بمبدل[2]

وقوله:

إن ترى رأسى أمسى واضحا ... سلط الشيب عليه فاشتعل[3]

---

(١) راجع: لبيد بن ربيعة العامى، د/ يحيى الجبورى ، ص ٤٠٢ .

(٢) الديوان: ص ١٩٩ .

(٣) الديوان: ص ٢١٣ .

ولعله نظر فى هذا البيت إلى قوله تعالى على لسان - سيدنا - زكريا - عليه السلام - : "قال رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا"[١] .

وقوله :

أحمد الله فلا ند له   بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن أشاء أضل[٢]

وقوله:

إنما يحفظ التقى الأبرار   وإلى الله يستقر القرار[٣]

فالشطر الثانى من هذا البيت يكاد يكون نظما لقوله تعالى :

" إلى ربك يومئذ المستقر"[٤]

ويمضى - رضى الله عنه - فى كثير من أبياته الإسلامية يذكر ويعظ بأسلوب سهل، وألفاظ رقيقة واضحة المعانى سهلة المبانى، يقول:

رأيت التقى والحمد خير تجارة   رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا[٥]

فالتقى والحمد ألفاظ إسلامية والبيت يذكر بقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم"[٦] .

---

(١) سورة مريم الآية ٤ .

(٢) الديوان: ص ٢١٢ .

(٣) الديوان: ص ١٠٣ .

(٤) سورة القيامة، الآية : ١٢

(٥) الديوان : ص ١٩٢

(٦) سورة الصف ، الآية ١١

ويقول:

وهل هو إلا ما ابتنى في حياته إذا قذفوا فوق الضريح الجندلا[١]

وهذا البيت يذكرنا بقوله تعالى: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى"[٢]

وفي كل أشعار لبيد الإسلامية تجد في ألفاظه بيانا ووضوحا ورونقا، وبين ألفاظه سبك وجمال صياغة، وليس ذلك بغريب على شاعر تأثر بالقرآن الكريم، وتأثر بالحديث النبوي الشريف.

٢- الأفكار والمعاني:

عرفنا أن لبيدا - رضي الله عنه - كان يتميز بأفق واسع في شعر الحكمة والتأمل فهو لا يقف عند صغائر الأمور بل يعالج قضايا كبرى تتصل بالنفس الإنسانية في كل زمان ومكان، وليس أكبر من قضية الموت والزمان وفراق الأهل وضعف الإنسان وعجزه أمام سطوة الأقدار وجبروت الزمان، ولجاجة النفس في البقاء والخلود وهموم الشيخوخة، وما إلى ذلك من قضايا لا تخص ناسا دون آخرين، فحكمة لبيد تدور في مجال واسع وعلى مستوى إنساني عام.

أضف إلى ذلك تأثره الواضح بالقرآن الكريم، فهو يكاد ينظم من معاني القرآن الكريم، وفي هذا الصدد يقول الدكتور شوقي ضيف: "والحق أن تلاوته للقرآن الكريم التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثارا عميقة وأنه استشعر معانيه ومواعظه فمضى يجليها أبياتا وأشعارا بل قصائد دينية[٣].

---

(١) الديوان: ص ١٩٢.

(٢) سورة النجم آية ٣٩.

(٣) العصر الإسلامي: ص ٩٥.

ووضح تأثره بالإسلام فى استعماله المفردات الإسلامية التى كثر ذكرها فى القرآن الكريم من مثل التقى والبر والأبرار والرحمة والبراءة والهداية والجزاء، وحمد الله تعالى، والنوافل، وغيرها من ألفاظ الإسلام وكلماته التى صارت لها مدلولات دينية تختلف عن مدلولها الجاهلى .

كما وضح تأثره بالإسلام فى محاكاته لآيات القرآن الكريم ونظم معانيها واستلهام الأفكار القرآنية وصياغتها فى شعره على نحو ما هو واضح فى أبياته التى يتحدث فيها عن الأبرار والتقوى والعمل الصالح ويوم الحساب وكتابة الأعمال .

إنما يحفظ التقى الأبرار ... وإلى الله يستقر القرار
وإلى الله ترجعون وعند ... الله ورد الأمور والإصدار
كل شئ أحصى كتابا وعلما ... ولديه تجلت الأسرار[1]

فالأبيات مأخوذة من الآيات القرآنية الكريمة :

"ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله"[2] وقوله تعالى "وكل شئ أحصيناه كتابا"[3] وقوله عز وجل: "وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا"[4]

---

(١) الديوان ص ١٥٣

(٢) سورة هود: من الآية: ١٢٣

(٣) سورة النبأ الآية: ٢٩

(٤) سورة الجن الآية: ٢٨

ونظرا لتأثره بروح الإسلام استطاع أن يصوغ هذه المعانى الدينية من معانى الدين الإسلامى ومفاهيمه وهذا ما جعل بعض الباحثين يقول: "وعندى أن لبيدا كان مجددا فى بعض معانى الشعر وأفكاره، وخاصة فى معانيه الدينية والحكمية وفى دعوته إلى تنقية الحياة من رواسب التمزق والألم والانتقال بها إلى منابع صافية نقية"[1] .

الصورة والخيال :

إن الناظر فى شعر لبيد بصفة عامة يجده يكثر من التصوير، حيث يرسم مناظر ومشاهد رائعة مكتملة الجوانب يلم بالصورة إلماما تاما يدقق فى أجزائها ويحصر أطرافها ويستقصى جوانبها، وهذا دليل التمكن فى الفن والدقة فى الملاحظة وخصب الخيال، وفى شعره الحكمى والتأملى رسم لوحات كاملة مؤلفة من جزئيات غاية فى الدقة مضامة ومتناسقة فى انسجام وفنية حتى اكتملت لديه اللوحة، ففى معلقته - عندما وقف على الديار وتأمل فى أحوالها - نجده قد صور رسوم هذه الديار بالكتابة على الحجر ليضمن بقاءها الأبدى لأنها تمده بعواطف متدفقة لا تنتهى، ثم ألح على هذه الصورة ودقق فيها وفصل فصور الطلول التى غسلتها الأمطار وأزاحت التراب المتراكم عليها بالكتب التى طمست كتابتها، وبعد عهدها بكاتبها، وشبه السيول التى غسلتها بالأقلام تجدد ما انطمس من معالمها، ولم يترك هذه الصورة، بل نظر

---

(١) لبيد بن ربيعة العامرى - حياته وشعره ، حسن جعفر ص ١٥٧ - ١٥٨ .

إليها من جانب آخر فصورها بالوشم القديم الذى بهت بفعل السنين فجاءت الواشمة لتجدده فهى تذر عليه النؤور وترسم عليه داراتها، وهذا دليل على حرص الشاعر وتمسكه ببقاء الأثر لأن عواطفه لا تعرف الخمول ولا التلاشى.

ثم يزيد الصورة حسنا وجمالا فينقلب الوضع فتنبت الأعشاب ويعلو الأيقهان وتلد الظباء والنعام والنعاج، وراحت صغارها تمرح وترتع على مرأى من أمهاتها، وبهذا تجده قد جمع فى هذه الصورة عناصر مهمة لازمة لجمال المشهد من ذكر الزمان والمكان والمياه واللون فى النبات، والحركة فى الحيوان، والصوت فى السحاب .

ثم يرينا صورة أخرى، هى صورة حمار الوحش وأتانه وهما يعدوان فيثيران سحابة من غبار، وتأمل كيف دقق وتأنق وحقق:

فتنازعا سبطا يطير ظلاله كدخان مشعلة يشب ضرامها

مشمولة غلثت بنابت عرفج كدخان نار ساطع أسنامها[1]

فهنا صور الغبار المثار بينهما كغلالة رقيقة يتنازعانها وشبه هذا الغبار بدخان مشبوبة الضرام، وقد كملت الصورة فى هذا البيت، ولو شاء لاكتفى بها، ولكنه أراد أن يفصل هذا التشبيه ويتقنه ويبين أن هذه النار أوقدت بنبات العرفج الطرى الذى يثير الدخان الكثيف فيزيد لهب النار بحيث تسطع أعاليها، وأن ريح الشمال تمر عليها فتزيد من ضرامها وسطوعها، ثم

---

(١) الديوان: ص ٢٤١ .

يرسم لهما صورة أخرى فيقول :

رجعا بأمرهما إلى ذى مرة حصد ونجح صريمة إبرامها

فتأمل كيف صدر العزيمة المصممة، والإقدام الذى لا تردد فيه، وكيف لاءم بين هذ المعنى الحازم الشديد وبين هذه الألفاظ الحازمة الشديدة فاستعمل كلمة "المرة" وكلمة "الحصد" ثم أرسل آخر البيت مثلا تجرى به الألسنة مهما اختلفت العصور والبيئات، وهو قوله: ونجح صريمة إبرامها، وهكذا الحياة تحتاج لمن يريد النجح فيها إلى الإصرار والمصابرة والعزيمة التى لا تكل ولا تتوقف .

فلبيد فى تصويره متأنق مدقق كأنه يرسم لوحة فيعنى بكل جوانبها، فقد عنى بالحمار الوحشى وأبان عن أوصافه الحسية، وعنى بسيرته فبين خصاله وحالته النفسية، فهو حريص على أتانه حذر يرقب الطريق كثير العراك، مسجح مكدم كثير النهيق كأنه غوى طرب شريب[1] .

ولبيد مولع بذكر ضروب من الحيوان فهو يحنو عليه فينجيه من عوادى الزمان وغدر الصياد، ويضفى عليه من صفات الإنسان وعواطفه، ويفسر سلوك الحيوان كما يفسر سلوك الإنسان، وقد سبق صورة البقرة المسبوعة وعرفنا كيف صور محنتها عندما افترست السباع صغيرها على غرة منها، فأضلته وهى لا تدرى ما حل به فانطلقت تجول بين الأكام، وتفتش فى الأنجاد عن هذا

---

(١) راجع: لبيد بن ربيعة العامرى ، د/ يحيى الجبورى ، ص٢٤٩ ، حديث الأربعاء جـ١ ص ٣٩ .

الصغير الذى صرعته الذئاب ولم تترك منه غير مزق معفرة بالتراب، وتقضى البقرة ليلتها المروعة تلك خائفة مفزعة وسط الظلام، وقد لاذت بأصل شجرة والأمطار تنهمر على متنها الأبيض،فلما أسفر الصباح عاودت البقرة بحثها عن ولدها وظلت كذلك سبع ليال كاملة حتىيئست وجف ضرعها واستبد بها الخوف والجذع، ثم تبدأ صراعا مع الصياد الذى رماها بسهامه فأخطأته فأرسل عليها كلابا مدربة سريعة كالسهام شرسة كالأسود، فتدور معركة حامية تسفر عن انتصار البقرة التى تصرع كلبة وتضرج أخرى بدمائها .

ويصور لبيد حنان الأمومة فى الظبية حين يشبه حبيبته بها، فهى ظبية ولود، أدماء اللون، ترتاد مسايل المياه، قد أنامت طلاها الغضيض الطرف اللين الأظلاف، الذى قد اشتد لحمه، أنامته فى موضع بذات السليم، وهى منه عن كثب ترقبه وترعاه خوفا عليه من وحوش الصحارى وعوادى الأيام يقول:[1]

ليالى تحت الخدرثنى مصيفة ... من الأوم ترتاد الشروج القوابلا

أنامت غضيض الطرف رخصا ظلوفه ... بذات السليم من دحيضة جادلا[2]

مدى العين منها أن يراع بنجوة ... كقدر النجيث ما يبذ المناضلا[3]

ويقدم لبيد صورا كاملة مركزة فى أبيات قليلة، تمتاز بالحيوية والحركة، وتزدان بالألوان والأجواء المثيرة المشحونة بالعواطف، هذا إلى

---

(١) الديوان: ص ١٩٢ .

(٢) غضيض: فاتر ، ذات السليم: موضع ، دحيضة: بلد .

(٣) النجيث: غرض الرامى ، ما يبذ : ما يفوت .

تمثيل واضح جميل يجلو الصورة ويزيدها حيوية وبهاء، ولنتأمل ذلك فى وصفه للثور تلجئه الأمطار والريح الباردة إلى أصل أرطأة .

فبات كأنه قاض نذور ... يلوذ بغرقد خضل وضال[1]

إذا وكف الغصون على قراه ... أدار الروق حالا بعد حال[2]

جنوح الهالكى على يديه ... مكبا يجتلى نقب النصال[3]

فقد صور الثور تحت الأشجار يحفر فى الأرض ويجد فى الحفر كأن عليه نذرا أن يحفر أو كأنه مصل مكب على صلاته فهو فى حركة دائمة، وقد أبان عن حذر الثور وشدة ذعره بحركة، قرنيه حين تسقط قطرات المطر العالقة بالغصون على ظهره فيهن قرنيه للقتال، ثم أضاف صورة أخرى مثل بها حركة يديه حين يعالج الرمال التى لا تتماسك ولا تستقر على حال فجاءت فى خيال لبيد صورة الصيقل المكب على سيفه يجلوه، فلبيد حشد فى هذه اللوحة ثلاث صور مختلفة لفعل واحد مما يدل على وفرة خياله، وهناك صور أوجزها لبيد فى بيت واحد منها قوله يصف البقرة المسبوعة:

وتضىء فى وجه الظلام منيرة ... كجمانة البحرى سل نظامها[4]

---

(١) الديوان: ص ١٧٨-١٧٩ ، قاض نذور ، أى كأنه يقضى نذرا .

(٢) وكف: قطر ، قراه: ظهره ، الروق: القرن .

(٣) جنوح: إكباب ، الهالكى: الذى يسن السيوف النقب: الصدأ .

(٤) الديوان : ص ١٧٩ .

فقد صور البقرة فى وسط الظلام بللها المطر وهى بيضاء ساطعة البياض تتحرك قلقة خائفة بصورة اللؤلؤ انفرطت من عقدها، فهى تضطرب على الأرض فى حبات مفردة متلألأ فيخطف نورها الأبصار .

ومن صوره التى ركزها فى بيت واحد قوله يشبه الناس بالديار:

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدوا بلاقع[1]

ومن صوره أيضا قوله مصور الموت حين يسوق الناس نحو الهلاك براعى إبل يزجر ما تخلف من إبله ويسوقها نحو القطيع :

ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم كما ضم أخرى التاليات المشايع[2]

وقوله فى مصير الإنسان :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذهو ساطع[3]

ومن ذلك قوله يشبه السحاب بالملاحف، وصوت الرعد بجلبة الإبل قد عزلت عن فصالها حين أخرجوا مرباع الرئيس من الغنيمة:

كأن فيه لما ارتفقت له ريطا ومرباع غانم لجبا[4]

وكما استعان لبيد فى تجلية صوره بالتشبيه استعان كذلك بالاستعارة، والاستعارة ضرب من المجاز يقوم على تناسى التشبيه، وقد جاء عند لبيد

---

(١) الديوان: ص ١٦٣ ، غدوا: أى غدا ، بلاقع، قفار .

(٢) الديوان: ص ١٦٤ ، أرسالا: جماعة فى أثر جماعة التاليات: أواخر الإبل .

(٣) الديوان ص ١٦٣ ، غدوا: أى غدا ، بلاقع، قفار .

(٤) الديوان ص ١٠٤ ، الريط: جمع ريطة قطعة قماش ، اللجب: الكثير الصوت .

جملة استعارات تدل على سعة خياله وتمكنه من فنه، من ذلك قوله فى مطولته :

وغداة ريح قد وزعت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها[1]

فانظر إلى هذا التخيل، وكيف جعل للغداة زماما، وللشمال يدا تتحكم بزمام الغداة .

ومن استعاراته الجيدة قوله يصور مغيب الشمس ونزول الظلام :

حتى إذا ألقت يدا فى كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

فقد جعل للشمس يدا وقد القتها فى كافر والمراد به الليل لأنه يغطى ما حوله من الثغور والأماكن التى تأتى منها المخاوف .

ومن الاستعارات الجميلة التى لون بها صورته قوله :

مرت الجنوب له الغمام بوابل ومجلجل قرد الرباب مديم[2]

فقد صور ريح الجنوب وقد تسببت فى نزول المطر بمن يحلب الناقة، ومن الصور البيانية التى اصطنعها فى إبراز صوره وتأدية معانيه الكناية، وإجادة التعبير بالكناية يدل على براعة الشاعر فى صياغة معانيه بأسلوب رمزى كثير الدلالات، وكنايات لبيد كثيرة وفيها سهولة وجمال، ومن ذلك قوله ذاكرا الموت وحسرة النساء وألمهن على الميت :

---

(١) الديوان: ص ٢٤٦ .

(٢) الديوان: ص ٢٥٨، الوابل المطر الشديد، مجلجل: كثير الرعد، قرد: مجتمع، الرباب السحاب، مديم: دائم .

وهل هو إلا ما ابتنى فى حياته إذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا

وأثنوا عليه بالذى كان عنده وعض عليه العائدات الأناملا[1]

ويكنى عن الموت باصفرار الأنامل:

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل[2]

وفى شعر لبيد الحكمى والتأملى صور كثيرة أغلبها مستمد من بيئته، وفى أكثر ما وصف كان بارعا ماهراً، يلم بالصورة ويدقق فيها ويهيئ لها أسباب الجودة والكمال .

وبعد .. فقد استبان أن لبيدا - رضى الله عنه - كان شاعراً حكيما من شعراء الحكمة المقدمين، الذين برعوا فى هذا الفن، فعد من رجاله وأحد أعلامه الذين رسموا خطوطه الأولى، فكانت حكمهم قواعد صالحة اقتدى بها من جاء بعدهم فى السلوك والأخلاق .

وصلى الله على سيدنا محمد عدد ما فى علم الله

صلاة دائمة بدوام ملك الله ..

وعلى آله وصحبه ومن والاه ..

أ.د/ عيد عبدالرحمن قناوى

---

(١) الديوان: ص ١٩٢ ، ص ٢٥٠ .

(٢) الديوان: ص ٢٠٥ ، دويهة تصغير داهية، وتصفر الأظفار عند الموت